عين المدينة

مجلة نصف شهرية مستقلة / العدد 94 / 16 أيار 2017

الغوطة الشرقية في الحصار

عدسة ياسين عبدالعال

وكالة قمرة - خاص عين المدينة

Ayn-almadina.com

facebook.com/3aynAlmadina

الافتتاحية

علم النظام في عنتاب!

انشغل الفيسبوك السوري مؤخراً بالفتاة التي رفعت علم النظام في جامعة عنتاب. عبّر ناشطون منفعلون عن نزوع عدواني تجاه الفتاة، ثم اعتذروا إثر استنكار شخصيات ثورية رأت في ما جرى تعبيراً عن الرأي، مهما كان. أما الفتاة نفسها فأغلقت حسابها على الفيسبوك فور ذيوع الصورة التي نشرتها عليه، وعملت على أن يختفي اسمها وتُنسى قصتها.

ولكن لا أحد يختفي كلياً في عصر التقنية الشاملة، إذ غفلت ابنة العشرين عاماً عن حساب قديم ومهمل لها في شبكة التواصل الاجتماعي ask التي يجيب فيها المرء عن أسئلة أصدقائه ومعارفه. وفيه أجابت اليافعة، خلال سنوات، عن ما يقرب من خمسة آلاف سؤال. وسوى الأسئلة السطحية والعابرة الكثيرة يحضر قليل من الأسئلة الشخصية والعامة ذات الدلالة الهامة هنا، ومن خلالها يمكن رصد موقف صاحبتها من الثورة مهما كان قليل العمق.

فمن بين الكتب القليلة التي قرأتها صاحبة الحساب، وهي روايات عاطفية شهيرة في معظمها، يحضر كتاب «القوقعة» الذي يمكن اعتباره «كتاب الثورة» لشدة واتساع ما أثر في جيل من الشبان والشابات قرأوه إبان الثورة، ولم يعرفوا مدى إجرام النظام إلا من خلاله. ويبدو أن الكتاب أثر في قارئته، طالبة الثانوية العامة، التي تمنت الموت و«الجحيم» بصراحة لبشار الأسد في أكثر من جواب، رغم أنها كانت تقيم وقتها في مدينتها حلب، وتخشى بالتأكيد المصير المجهول لابن عمها الذي اعتقله الأمن للاشتباه في مشاركته في الاحتجاجات.

لا يعني هذا أن الفتاة كانت ثائرة، فأجوبتها أقرب إلى الحياد عملياً، ولكن موقفها من النظام لم يشُبْه لبس أو ولاء أو تشبيح. غير أن المشهد أخذ يختلط في نظرها أكثر مع تزايد القذائف العشوائية التي كانت تطلقها فصائل الجيش الحر، من النصف الذي كانت تسيطر عليه من حلب، على الأحياء التي تحت سيطرة النظام، حيث كانت الفتاة تقيم، وهنا استقرّت في الرمادية بعد أن رأت أن «الطرفين يقتلان المدنيين».

هل من العدل أن نطلب من المرء الوقوف مع من قد يكونوا قاتليه في أي لحظة طائشة؟!

اليوم، وبعد أن سقطت كل أحياء حلب في يد النظام وتفرّق ثوارها، ورفعت الفتاة العلم الأحمر في أبرز منافيهم، علينا أن نفكر كم أضعنا من فرص وكم فرّطنا بأنصار.

3 صبيخان عاصمة الشويط الهادئة

5 أحمد اسطنبلي.. من رئيس مجلس محلي إلى مختار لدى النظام

7-6 حراك السويداء الثوري (1 من 2)

9 صلاح الدين الأوزبكي قائد كتيبة الإمام البخاري

13-10 تل أبيض.. عرب وكرد وتركمان (ملف)

14 لماذا عاد وليد المعلم الى الظهور؟

17 لماذا تقبل الشعوب بالعبودية؟

19 أبو سعيد الأشرم محافظ الجورة والقصور

صبيخان.. عاصمة الشويط الهادئة

علي خطاب

ما زالت بلدة صبيخان، شرق مدينة دير الزور بـ70 كم على الضفة اليمنى لنهر الفرات، تتمتع بهدوئها رغم تواتر استفزازات أمنيي وعناصر حسبة تنظيم الدولة الإسلامية لأهاليها ورد هؤلاء عليهم بين الحين والآخر، إلا أن هذه الحوادث أبعد ما تكون عن اضطرابات كبيرة.

صنفت صبيخان إدارياً كمدينة منذ نحو عشر سنوات، وقد يتجاوز عدد سكانها اليوم 40 ألفاً، إلا أنها ما زالت تجمعاً ريفياً تسكنه عشيرة الشويط التي يتوطن أبناؤها كذلك في ثلاث قرى مجاورة في الشامية (الكشمة والدبلان وغريبة)، وقرية أبو حردوب على الضفة المقابلة في الجزيرة. ودفع وزن العشيرة العددي القوى المحلية الكبرى في سوريا إلى محاولة جذب أبنائها، لكن الأخيرين لم يسجلوا انجذاباً ملحوظاً إلا باتجاه التظاهر في بداية الثورة، ثم تشكيل كتائب الجيش الحر التي شارك بعضها في تأسيس قوى عسكرية ضخمة، كلواء جعفر الطيار.

جذور الهدوء

آخر التحام عنيف جرى بين البلدة وتنظيم الدولة كان منذ أربعة أشهر، في حي الرطبة، حيث أخفى أهله رجلاً مطلوباً للتنظيم حاولت دورية للحسبة البحث عنه لكنها اصطدمت بمقاومة أهلية، فاستعانت بتعزيزات من الميادين والعشارة، اعتقلت إثرها أكثر من عشر نساء لأربعة أيام، وما يقارب المائتي رجل، في إحدى الروايات، تعرضوا للضرب ثم السجن لثلاثة أسابيع، بقيت خلالها حواجز التنظيم في شوارع البلدة، كما فعل في حوادث سابقة قتل فيها مجهولون أو معروفون عناصر في حسبته.

لم تؤثر الحادثة على هدوء صبيخان المعتاد، فعشيرة الشويط المسالمة لم تخرق هذا الهدوء منذ عقود إلا في حوادث نادرة، كشجار مع الجيران من عشيرة المشاهدة بسبب امتداد أراضيهم في البادية. ويبدو أبناء الشويط اليوم بلا ضغائن مع الجوار، أو موقف حاد من التنظيم نفسه أو حتى من النظام، رغم كل ما يجري في المنطقة، وجرى للعشيرة ذاتها، منذ استبعاد نائبها أحمد الجاجان من مجلس الشعب ستينيات القرن الماضي، لينساها نظام البعث في ريف الدير المترامي نهائياً، في وقت لم يكن فيها أي جامع، ثم ليتذكرها مع اعتقال عشرات الشبان من البلدة منذ أكثر من ثلاثة عقود على خلفية انتمائهم إلى الإخوان المسلمين، الذين مثلهم في المجلس الوطني المعارض بعد الثورة، إلى جانب آخرين، الدكتور علي الفرحان من البلدة.

يقدر شبان من صبيخان عدد أبناء بلدتهم في الخليج، خاصة قطر، بثمانية آلاف، اشترى أقاربهم في الداخل على مدى سنوات سبعة آلاف دونم من أراضي حاوي العشارة. وما زالت تعمل في البلدة أربعة معامل كبيرة نسبياً بصناعة الجبنة والألبان. وتصل قيمة التحويلات المالية من الخارج إلى مليار ليرة سورية شهرياً، عبر خمسة مكاتب صرافة تعمل حالياً في البلدة. لكن الثراء الواضح من الأرقام والواقع المشاهد فيها لا ينسحب على كافة أبناء العشيرة، فهناك الكثير من الفقر المدقع.

المركز والأطراف

رغم وجود نوع من التكافل الاجتماعي بين أهالي صبيخان إلا أن فعاليته لا تصل إلى أبناء عشيرة الشويط في القرى المجاورة، خاصة قرية أبو حردوب البسيطة، التي خسرت 45 شخصاً بانفجار سيارة مفخخة أرسلها التنظيم بعد أن انتفضوا ضده أثناء معارك جيرانهم الشعيطات. لكن أبناء أبو حردوب تغيروا إلى النقيض بعد أن ثبّت التنظيم قبضته على المنطقة فراحوا يدخلون صفوفه، حتى وصل عدد المبايعين منهم اليوم إلى المئات، غالبيتهم من الأطفال والمراهقين، بينما لا يتجاوز عدد من بايعوا من صبيخان الثلاثين شخصاً، على رأسهم عامر الغفال الذي بايع للنجاة بنفسه من ثارات عشائرية، كما يتداول أبناء البلدة، وقد قتل منتصف السنة الفائتة بسبب أحدها، كما يُهمَس سراً.

محاولات استقطاب

في محاولة من النظام جذب العشيرة أوصل المقاول المغمور جهاد الشخير من أبناء صبيخان إلى عضوية مجلس الشعب في 2013، في انتخابات أجريت في منتصف تلك السنة خصيصا لملء مقعد شاغر عن (دائرة محافظة دير الزور). ثم، وبعد أن تعدى بالضرب على قاضية في دمشق، استقر به المقام لاجئاً في ألمانيا، بعد أن فشل في دوره في جر العشيرة إلى جانب النظام.

بالمقابل رعى تنظيم الدولة، منذ ستة أشهر، بيعة حوالي 300 من وجهاء الشويط، ينتمون إلى 93 فخذاً، شيخاً لهم بعد وفاة الشيخ ناصر الجاجان. ورغم الشعبية الكبيرة التي يتمتع بها زهير الجاجان إلا أن واصل الجاجان فاز بالمشيخة. ويرى شبان من البلدة أن «الواصل ضعيف الشخصية ما كان ليصل للمشيخة لولا أنه يعمل في مكتب العلاقات العامة التابع للتنظيم»، في محاولة من الأخير جذب المزيد من أبناء العشيرة نحوه، لكن لا يبدو أنه سينجح في العاصمة صبيخان، رغم نجاحاته الجزئية، لكن المستمرة، في الأطراف.

معهد إعداد المدرّسين في محافظة حلب

محمد سرحيل

رغم طابعه المدني وأهميته وتأثيره على المدى البعيد، لم يكن قطاع التعليم بمنأىً عن الاستهداف المتكرر من قبل نظام الأسد، كغيره من المؤسسات والقطاعات. فقد تعرض للقصف المباشر والمتعمّد عشرات بل مئات المرات، إذ يدرك النظام أن أي نهضة علمية في حواضن الثورة لا بد أن تشكّل صفعة قوية له، لا تقل، بل تفوق الصفعات والخسارات التي مني بها عسكرياً. معهد إعداد المدرسين أحد الصروح العلمية التي استحدثها الثوار، ونتعرف عليه عن كثب في هذه المادة.

النشأة والتأسيس

كانت البداية من مدن مارع واعزاز وتل رفعت، حيث اتفقت مجموعة من الأساتذة والأكاديميين على تأسيس كيان يتبع مركزية واحدة، يحاولون من خلاله انتشال جيل من الأطفال مهدد بالحرمان من التعليم نتيجة هجرة الكفاءات العلميّة واستشهاد وفقد الكثير منها، وكذلك انشغال بعضها في ميادين السياسة أو غيرها. وتم الإعلان عن تأسيس المعهد في أيلول 2014. وهو يهدف إلى تأهيل الطلاب في الداخل السوري، والعمل على رفع كفاءاتهم في العملية التعليمية ليكونوا مدرّسين ومدرّسات بعد استقرار الأوضاع. ويُعدّ المعهد خياراً رئيسيّاً يلجأ إليه الطالب بعد حصوله على الشهادة الثانوية، وكذلك الجامعيون الذين لم يعد بمقدورهم متابعة تعليمهم.

الكوادر والتخصصات

يستقبل المعهد حاملي الشهادات الثانوية بكافة فروعها (علمية؛ أدبية؛ شرعية) شريطة حصولهم على معدل يفوق 50 في المائة من المجموع العام، واجتياز امتحاني القبول الشفهي والكتابي. ويتألف المعهد من ثمانية فروع تتوزع في كل من: تل رفعت ومارع واعزاز وعندان وعينجارة ودارة عزة والأتارب والزربة. ونتيجة سيطرة ما يسمّى «قوات سورية الديمقراطية» على تل رفعت، وسيطرة النظام على طريق نبّل قرب عندان؛ فقد نزح المعهدان المذكوران إلى إحدى المناطق الحدودية مع تركيا ليواصلا عملهما رغم الظروف الصعبة. يحوي المعهد عدة أقسام وفق الاختصاصات الآتية: (لغة عربية؛ لغة إنكليزية؛ علوم؛ رياضيات؛ تربية؛ معلم صف؛ شريعة). وتضم الفروع بمجموعها 1465 طالباً وطالبةً موزّعين على 69 شعبة، بكادر تدريسي مؤلف من 155 من حملة الدكتوراه أو الماجستير أو الإجازة الجامعية، ممن لديهم خبرة في التدريس لا تقل عن خمس سنوات. في حين بلغ عدد الإداريين خمسة وسبعين.

الشهادة والاعتراف

يتبع المعهد لوزارة التربية والتعليم في الحكومة السورية المؤقتة. ويحظى باعتراف في كافة المناطق المحررة وتركيا وبعض الدول التي تعترف بالحكومة. ويقول غسان كورج، مدير معهد عندان، لـ«عين المدينة»: يتفوق معهدنا بمراحل على معهد إعداد المدرسين التابع لحكومة الأسد سابقاً، من جهة تطوير المناهج وأساليب التدريس، إذ قمنا بإدخال مقررات جامعية إلى منهاجنا، واعتمدنا عدداً من القوانين الجامعية. يقضي الطالب عامين عندنا ليتخرج كمعلم أو مساعد مدرّس للمرحلتين الابتدائية والإعدادية، وقد تخرجت العام الماضي الدفعة الأولى للمعهد في كافة الاختصاصات. وبعيداً عن المناهج الرسمية لدينا عدد من النّشاطات المتنوعة التي نقيمها بين الفينة والأخرى.

غسان كورج

صعوبات وتحديات

يواجه المعهد عراقيل وتحديات كبيرة، إلا أنه صمد للعام الثالث رغم هذه الصعوبات التي كان ولا يزال من أبرزها، حسبما صرّح كورج: عدم طباعة المناهج بشكلٍ رسمي وفني أنيق، إذ لا نزال نعتمد نسخاً إلكترونية يتم تصويرها وطباعتها على شكل «نوطة». وكذلك الدعم المالي المتعثر للمدرّسين والإداريين في العام الحالي هو أحد أبرز العقبات، إذ لا يحصل المدرّسون والإداريون إلا على مقابل بسيط جداً لا يكفي حاجاتهم، ويأتي على شكل منح من إحدى الجهات الخيريّة كل أربعة أو خمسة شهور. ونواجه أيضاً صعوبات كبيرة في تأمين المواصلات للطلاب والمدرّسين على حد سواء، خصوصاً معهدي تل رفعت وعندان بعد نزوحهما من مناطقهما إلى منطقة أخرى على الحدود السورية التركية.

يضيف كورج: قصف المراكز أحد التحديات والمخاوف التي تواجهنا أيضاً، لأن نظام الإجرام يخشى من القلم والفكر والعلم -كما من أي مشروع نهضوي- أكثر مما يخشى من السلاح. ولا زلنا نذكر أواخر 2013 عندما بدأ بقصف مدينة حلب بالبراميل حين شهدت حركة تعليميّة وتجاريّة ونشوء مؤسسات ومجالس بدأت تستقطب بعض سكان وتجّار الأحياء الغربيّة من المدينة!

أحمد اسطنبلي

من رئيس مجلس محلي في حلب.. إلى «مختار» لدى النظام!

مصطفى حسين

من إداري في مؤسسة إغاثية تابعة لإحدى كبرى فصائل المعارضة في حلب إلى مختار في حيّ المواصلات الخاضع لسيطرة النظام، قطع أحمد اسطنبلي مسيرة تحوّل مدهشة، بعدما كان يُمثل لدى بعض الأوساط المعارضة في منطقته «أباً روحياً» للثورة.

اسطنبلي، المعروف بـ«حج أحمد»، شخصية محبوبة، لما يتمتع به من لسان «رطب» كما يُقال في حلب، وإن كان لا يمكن إخفاء التزلف والنفاق في حديثه. دخل اسطنبلي الوسط الثوري بعد تقديم نفسه على أنه من منظمي المظاهرات في تنسيقية حيّ الشعار.

عمل اسطنبلي سائقاً في مؤسسة إغاثية تابعة لإحدى كبرى الفصائل في حلب، قبل أن يثبت جدارته فيتم تعيينه مديراً لـ«مكتب الطحين» الذي كان يُزوّد كامل عناصر الفصيل وعدداً كبيراً من المدنيين بالخبز المجاني وشبه المجاني. وتزامن عمله هذا مع تشكيله «المجلس المحلي لحي المواصلات» في عام 2014، وتوليه رئاسته.

عَمَلُ اسطنبلي كمدير للطحين، وكرئيس لمجلس حيه، أكسباه علاقات مدنية وعسكرية واسعة في حلب وريفها، نظراً للزيارات التي كانت ضمن مهامه العملية لمقرات الفصائل. ولم يقتصر الأمر على تعرفه بقياديّي الفصيل المُسلّح الذي يعمل معه، وإنما تعداه إلى معارف مع المؤسسة الأمنية وأمراء في جبهة النصرة و«الهيئة الشرعية»، ما جعله مقصداً وصلة وصل بين هؤلاء وفصيله في حالة العوائق والخلافات. وبعد ذلك تسلّم كامل مقدرات القمح والطحين في الفصيل.

استمرّ اسطنبلي في الصعود. فقبل قرابة شهر من سقوط حلب تسلّم إدارة المطبخ الذي يزود مقاتلي الفصيل بالطعام على الجبهات، وكان خلال تلك الفترة متعصباً، فهاجم وعادى كل من تحدث عن السقوط الوشيك أو حاول إحباط المعنويات، مؤكداً أن الأمور ما تزال جيدة وتحت السيطرة. وبعد وصول قوات النظام وميليشياتها إلى مشارف حيّ طريق الباب كان يرى في المدنيين النازحين من الحرب والاشتباك «خونةً» للمبادئ، وكان يصرخ بهم ليلتحقوا بالجبهات، أو على الأقل ليساهموا في إعداد طعام للمقاتلين.

اختفى اسطنبلي فجأة دون أن يترك أثراً أو خبراً لدى المؤسسة أو الفصيل، وعُرف في ما بعد أنه غادر إلى مناطق النظام، بالتنسيق مع شقيقه عبد الرحمن الذي يعمل سائقاً للعميد سهيل الحسن الملقب بالنمر، والذي اصطحبه من معبر طريق الباب إلى مكان آمن، ولم يُعرف بعد إن كان متورطاً في إرسال إحداثيات مواقع الفصائل ونقاطهم، التي يعرفها جيداً، إلى النظام ليقصفها.

لدى علم المؤسسة الإغاثية بحادثة فراره ذهبت إلى البيت الذي كان يقيم فيه في حيّ المواصلات لاسترداد أشياء كانت بحوزته، بينها سيارة ومال وأوراق تخص العمل، لكنْ لم يكن هناك أثر لأي شيء عدا السيارة التي سبق و«وهبها» لعضو في «الهيئة الشرعية» يُدعى أبو شريف، لتغطية «حسبة قديمة» بينهما تتعلق بخلافات شخصية.

حتى الآن لا يتجاوز ما حدث سياق المعقول، ففي حلب سجلت حالات مشابهة. لكن اسطنبلي، الذي يبدو أن المفاهيم انقلبت لديه تبعاً لـ«هوا السوق» والمسيطر الجديد على المدينة، لم يكتفِ بذلك. ففي مطلع شباط 2017 داهمت قوات الأمن العسكري منزل أحد زملائه السابقين في العمل الإغاثي، واسمه محمود فاعور، في حيّ الشعار، واعتقلته بعد أن «عفّشت» كامل أغراض منزله، بتهمة «التعامل مع الإرهابيين». وكان الفاعور قد تسلّم إدارة صالة ألبسة في المؤسسة الإغاثية ذاتها التي عمل فيها اسطنبلي، إلا أنه ظل بعيداً تماماً عن أي عمل عسكري، ولم يكن معروفاً إلا للإداريين في المؤسسة.

ولدى تقدّم النظام اضطر إلى البقاء في منزله لارتباطه بمسؤوليات تجاه أطفاله وأخواته، ظاناً أنه بمأمن، لكنّ زميله لم يدع ذلك يمرُّ بسلاسة فأبلغ عنه الأمن. وربما يكون اسطنبلي قد أخبر عن كُثر غيره، قبل أن يصبح منذ فترة قصيرة مختاراً لحيّ المواصلات، ويبدأ بالتحدث عن «الإرهابيين» بذات نبرة التعصب والنفور التي كان يتحدث بها عن ميليشيات النظام.

بين رئيس مجلس محلي معارض و«مختار» موالٍ، وبين «عراب للثورة» و«ناهش جسدها»، تضيع الكثير من العناوين. وإذا كان من المتعارف عليه أنه في الحروب توضع الكثير من الأعذار والمبررات للآخرين الذين يحاولون التماس خيط نجاة، فإنه أمام الحالة هذه تسقط كافة المعايير الأخلاقية والإنسانية أيضاً.

حراك السويداء الثوري (١ من ٢)

فراس علاوي

أواخر نيسان المنصرم اعتصم عشرات من ناشطي مدينة السويداء في إحدى ساحاتها (ساحة الفخار) ضمن ما قالوا إنها حملة سموها «من الأول يا ثورة». الاعتصام السلمي والتسمية والمكان تحمل دلالات عن النمط الخاص للحراك الذي تميزت به السويداء التي اقترن اسمها بثورة عام 1925، الثورة الشعبية الأوسع ضد الانتداب الفرنسي. وكما عرف اسمها مقترناً بشخصية سلطان باشا الأطرش زعيم تلك الثورة، عرف بشخصيات وظواهر أخرى أسهمت في صناعة التاريخ السوري في القرن العشرين.

محطات في حراك السويداء

تأخرت السويداء عن الالتحاق كما يجب بركب المحافظات المنتفضة على نظام الأسد، ويذهب كثيرون إلى أنها لم تلتحق أبداً. يزعج هذا النفي بعض أبناء السويداء ممن خرجوا في حراكها الثوري. يقول ناشط شارك في الاعتصام الأخير وطلب إغفال اسمه: «لبت السويداء نداء الثورة فخرج العديد من أبنائها في أول مظاهرة في المدينة بُعيد ما جرى في درعا، وكان أول اعتصام أو مسيرة شموع في ساحة سلطان الأطرش تضامناً مع أطفال درعا المعتقلين في سجون النظام يوم 18 آذار 2011. وسارعت منتهى الأطرش، ابنة سلطان، إلى إصدار بيان يؤكد وحدة الدم السوري، قبل أن تقيد حركتها وتوضع تحت الإقامة الجبرية تقريباً بضغوط أمنية وعائلية. وكانت نقابة محامي السويداء من أول النقابات، بل أول نقابة تدعو إلى اعتصام ضد تعامل نظام الأسد مع الثورة، تلته دعوة النقابة إلى الإضراب في بيان أكد على رغبة الشعب السوري في التحرر. وتبعتها في ذلك نقابة المهندسين. وفي 17 نيسان من ذلك العام خرجت مظاهرة كبرى في ساحة الشعلة، أحاطت بها مجاميع الأمن والشبيحة قبل أن تنقض على المتظاهرين لتفريقهم والاعتداء عليهم. كما خرجت مظاهرة كبيرة في بلدة القريا وفرقت أيضاً بالطريقة ذاتها واعتقل عدد من المشاركين فيها. لتتسع بعد ذلك رقعة المظاهرات وتصل إلى مناطق أبعد في صلخد وشهبا وغيرها. ونوّع الثوار، كما في محافظات أخرى، طرق احتجاجهم حسب مقتضيات الحال التي تحكمها ممارسات النظام التي تنوعت بين التهديد والاعتقال والتعذيب والقتل أو التصفية. وفي الخلفية كانت الصور تأتي من البؤر الثائرة الأخرى في حمص ودرعا وإدلب وريف دمشق، لينقسم رأي ثوار السويداء بين من أراد التصعيد وتحدي النظام وبين من آثر العمل بنفس طويل وتفويت الفرصة على النظام بسحق الحراك كله كما فعل في مناطق أخرى، ويستقر الحال أخيراً على الخيار الأخير. لتكون الأنشطة الإغاثية والأنشطة الأخرى التي تعنى بالنازحين وخطوات العمل المدني، بديلاً «مؤقتاً» -كما يأمل معظم الناشطين- عن الحراك الثوري المباشر إلى أن يحين الظرف المناسب».

لم تتوقف أشكال الاحتجاج ضد النظام، رغم تغير شعاراتها المعلنة من سياسية تنادي بالتغيير وبمطالب الثورة أول الأمر، إلى مطالب اقتصادية وخدمية وإجرائية اتقاء لشرور النظام وبطشه من جهة ومراعاة لخصوصية المحافظة من جهة أخرى. وتعددت الحملات أو الحركات التي أطلقها الناشطون بين وقت وآخر، من «حطمتونا» إلى «لا» التي اتخذت من وقف التجنيد الإجباري لأبناء السويداء مطلباً رئيسياً لها، إلى حملات أخرى ذات طابع مدني مطلبي في مجملها، كان آخرها حملة «بدنا نعيش» التي لم تشهد تجاوباً كبيراً للأسباب ذاتها التي لم تجعل حراك السويداء يتطور. وفي كل الحالات كان قادة هذا الحراك هم أنفسهم.

لم يمارس النظام سياسته المبنية على العنف بشكل مباشر بسبب الطبيعة الاجتماعية والإثنية لمحافظة السويداء، التي تشكل شبه وحدة دينية مستقلة عن سواها، ومجموع السكان على المذهب الدرزي فيها يشكلون واحدة من الأقليات الدينية التي يجتهد النظام بتصوير ذاته أنه حاميها من الارهاب.

يقول (خ.ح)، وهو ناشط سياسي: إن «السويداء معتقلة منذ وقت طويل»؛ فـ«القطع العسكرية تحيط بها من كل جانب، ومقر الفرقة 15 داخل المدينة، وفي بعض القرى تتمركز مقرات الوحدات العسكرية بين البيوت». وهذا سبب من أسباب ضعف الحراك الثوري في المحافظة، إضافة إلى القبضة الأمنية، فضلاً عن الممارسات الأخرى طويلة الأمد في إضعاف نفوذ العائلات والشخصيات الوطنية العريقة، لحساب صاعدين جدد ارتبطت مصالحهم بمصالح النظام الذي لجأ، أكثر من مرة، إلى قتل بعض الشخصيات التي قد تشكل خطراً عليه، مثلما فعل مع الزعيم البعثي المعارض شبلي العيسمي باختطافه من محل إقامته أو منفاه في لبنان ثم تصفيته في معتقلات المخابرات الجوية بدمشق، وكما فعل مع بعض شيوخ السويداء كأحمد الهجري ووحيد البلعوس ورفاقه.

يلخص جمال الشوفي، وهو كاتب وناشط سياسي، الأسباب التي أدت إلى تراجع الحراك الثوري في السويداء بما فعله النظام خلال سنوات من عزل البيئة الاجتماعية للمحافظة عن محيطها بإقناع قطاعات واسعة من سكانها أنهم طائفة مستهدفة حالهم حال العلويين وغيرهم من الأقليات، وبأن ما يحدث هو صراع

سنّي شيعي وأن القضاء على الأقليات واضطهادها واحد من أهدافه. وفي مدينة فقيرة مثل السويداء تشكل الوظائف الحكومية سبيل عيش رئيسي يكاد يكون وحيداً لعشرات الآلاف من السكان، ما عزز اعتماد هؤلاء على الدولة ورفع مستوى مخاوفهم أمام تهديدات أجهزة الأمن لكل من يحاول الاحتجاج بالفصل من الوظيفة وقطع لقمة العيش، وكذلك التهديد بترك السويداء عرضة لسيطرة تنظيمات متشددة مثل داعش.

يذكّر الشوفي ويذكّر كثر من أبناء المحافظة بحادثة عام 2000 حين تطور نزاع بين أهل السويداء وجيرانها من البدو إلى معارك دامية داخل المدينة أطلقت خلالها يد أجهزة الأمن لتقتل 16 شخصاً من أبنائها وتعتقل المئات، كعامل تخويف مسبق ربما لعب دوره في الكشف عن الطبيعة الوحشية المنفلتة لنظام الأسد وفي الوقت ذاته زرع في ذاكرة أهالي المدينة صورة لما يمكن أن يحدث في حال قرروا الانتفاض على النظام أو الوقوف ضده.

كان للنظام أسلوب مختلف في السويداء وأبدى حذراً وعناية فائقتين بالتعاطي مع حراكها السلمي، لأنه لا يستطيع أن يلصق بها تهمة التطرف والإرهاب والتبعية لأجندات تكفيرية كما في محافظات سورية أخرى، ولذلك بذل جهوداً إضافية في تأسيس ودعم شبكات قمع محلية قوامها أبناء المحافظة وبقيادة أشخاص منها يعملون بتوجيهات أجهزة المخابرات المحلية، لتعميق الشرخ الاجتماعي وزيادة الانقسام على أساس الولاء للنظام أو معارضته، وبالتالي إضعاف المجتمع كله.

يسجل لأهل السويداء أنهم هاجموا خياماً نصبت لاستقبال النازحين، إذ رأوا فيها تصرفاً غير لائق أمام ضيوف وإخوة يجب أن تفتح لهم البيوت، وفق ما قال بيان صادر عن ثوار المدينة. وحتى الآن ما زالت السويداء واحدة من الوجهات المفضلة للنزوح رغم الفوضى والانفلات الأمني والممارسات التمييزية من قبل أجهزة المخابرات ضد الوافدين.

خلدون زين الدين ورفاقه

في أيلول من عام 2011 انشق الملازم أول خلدون زين الدين ابن قرية شعف (شرق السويداء) عن جيش النظام، ليعلن انضمامه إلى لواء الضباط الأحرار المؤسس حديثاً آنذاك كإطار يستوعب الضباط المنشقين بقيادة المقدم حسين هرموش. وبعد شهر أسس زين الدين كتيبة سلطان باشا الأطرش التي ضمت حينها شباناً من محافظتي درعا والسويداء بلغ عددهم حسب ناشطين 123 شاباً. خاضت هذه الكتيبة معارك عدة ضد حواجز لقوات النظام في المحافظتين قبل أن يقرر زين الدين في 2013 خوض معركة أخطر بمهاجمة مواقع أكبر في منطقة ظهر الجبل في محافظة السويداء، عازماً على توسيع ظاهرة الجيش الحر إلى ثورة هذه المحافظة بنقل المواجهات إلى أرضها. وعن هذه المعركة يقول الملازم أول فضل الله شقيق خلدون في لقاء مع مجلة «ضوضاء»: «كان الهدف الأساسي إدخال محافظة السويداء في العمل العسكري أسوة ببقية المحافظات السورية الثائرة، وتطويق الفكر الطائفي والتعصب تجاه المحافظة والأقليات بشكل عام». ويبدو أن هذا الهدف الكبير دفع خلدون إلى تجاهل فارق القوة مع النظام، ليخوض معركة بطولية قضى فيها إلى جانب 14 من المهاجمين، وبذلك قُضي على الحراك المسلح للسويداء في مهده.

وغير خلدون لمعت أسماء أخرى لضباط من السويداء انشقوا عن جيش النظام، منهم اللواء فرج المقت والعقيد مروان حمد والمقدم حافظ فرج الذي انشق في مدينة موحسن بدير الزور في الشهر الخامس من العام 2012 وقاتل في مناطق مختلفة من سوريا، والملازم أول مهند العيسمي وغيرهم. ولا ننسى بالطبع الملازم أول أميرة أبو حصاص زوجة خلدون، إضافة إلى مئات وربما آلاف المنشقين من المجندين الذين رفضوا العودة إلى جيش النظام وآثروا البقاء في قراهم وبلداتهم.

تأثر الحراك العسكري في السويداء، كما المدني، بالقبضة الحديدية التي تمارسها القوى الأمنية التي أطلقت يد الشبيحة من أبناء المحافظة ودعمتهم بالسلاح. وفي هذا الإطار يبرز اسم وفيق ناصر، الذي يعد الحاكم الفعلي للسويداء، وهو رئيس فرع الأمن العسكري وقائد الشبيحة فيها بالتنسيق مع بعض الفعاليات الدينية والمدنية التي ترأست مجموعات التشبيح. وكذلك يبرز اسم العميد عصام زهر الدين وعائلته، وخاصة ابنه يعرب وأبناء عمومته وإخوته، إذ خاض العديد من المعارك وارتكب العديد من المجازر في بابا عمرو وحلب ودير الزور، وشكل العديد من المجموعات التي مارست التشبيح على أهالي السويداء، وأبرزها مجموعة نافذ أسد الله.

في قراءة قد تكون متعجلة لسيرة الحراك الثوري في محافظة السويداء، كان خلدون زين الدين ورفاقه من الضباط المنشقين، وكذلك قادة الحراك السلمي وناشطيه، نخبة متعلمة ومسيسة في آن واحد، حالت عوامل متعاضدة دون توسيع مساحات تأثيرها. ولو قدر لها أن تمتد لزمن أطول لتغير الكثير في حكاية السويداء ولحرمت نظام الأسد من واحدة من أباطيله المفضلة بأنه يحارب الإرهاب الإسلامي.

تفكيك صاروخ غير منفجر بريف إدلب الجنوبي - خاص

السوريون وثقافتهم العسكرية الجديدة

مريم أحمد

«لا تخافي يا عمتي، الطيارة ما رح تضربنا لأنها فوقنا. الحربي بتضرب قدامها والمروحي بتزت براميل تحتها. وهاي مانك شايفتيها حربية؟ رح تضرب الجسر»؛ بهذه الكلمات البسيطة أرادت حسناء، بنت الست سنوات، أن تخفف خوف من الطائرة التي بالفعل استهدفت جسر الشغور بثلاث غارات متتالية ذلك اليوم.

استخدم النظام السوري شتى أنواع الأسلحة ضد المطالبين بالحرية، وصنع البراميل المتفجرة التي تلقيها المروحيات ليخفف من تكاليف حربه وليزج بمروحيات النقل في المعركة. ومع مرور الزمن امتلك سكان المناطق المحرّرة ثقافة تجعلهم يميزون أنواع الطائرات، بل تطورت هذه المعرفة إلى تقدير إن كانت تحمل براميل متفجرة أم لا، بالإضافة إلى ثقافة عامة بأنواع الصواريخ والذخائر، ومعرفة تامة لدى الكثيرين بطرق تفكيك الذخائر غير المنفجرة والاستفادة من مكوناتها..

قالت لنا مريم (32 عاماً) من أهالي المعلقة القريبة من جسر الشغور: «في ليلة صيفية، وبينما العائلة مجتمعة على ضوء القمر المتسلل من النافذة، بدأ صوت الطائرة يقترب أكثر فأكثر. صرت أبكي من الخوف فاقتربت مني حسناء بنت أخي وهي تردد: «لا تخافي يا عمتي، الطيارة فوقنا. بتتذكري يوم استشهد أبي؟ ما حسينا إلا البيت انضرب، ما سمعنا صوت طيارة ولا صوت انفجار. وهلق بما أنه عم نسمع صوتها معناها الضرب بعيد عنا. فالصاروخ يللي بدو يجي علينا ما منسمعو نحن»؛ بهذه الكلمات المقنعة خففت الصغيرة من خوفي. استغربت قدرتها على التحليل ثم عرفت أنها ليست الوحيدة، فغالبية الأطفال صاروا يميزون أنواع الصواريخ من صوت انفجارها وكثافة الغبار التي تخلفها، ويعرفون أن هذا الصاروخ ارتجاجي أو عادي أو عنقودي. تكمل الطفلة حديثها وعيناها تدمعان، تصمت ثم تتنهد وتكرر: «يوم استشهد أبي ما سمعنا صوت طيارة ولا صوت انفجار، ما شفنا إلا الدخنة وغرفتنا كلها ع الأرض».

أما أم محمد، المرأة المسنة من الريف الجنوبي لإدلب، فتقول: «صار الكبير والصغير بيعرف إذا المروحية محملة جنود أو براميل.. وبسهولة بنميز الألغام البحرية أو البراميل التي بتضرب فيها الناس. فالمروحية يللي محملة براميل، بعد ما دخل الروس على سورية، بتجي من قبلة فقط من مطار حماة. كانت قبل بتجي من مغرّب من مطار حميميم، أما هلق المروحية يللي بتجي من مغرّب بتكون روسية وهاي بتنقل جنود وأكل، أما الجاي من قبلة بتجي محملة براميل وبيكون هديرها عالي بتعرّ عرير لأنه السوريين بيشيّلوها أكثر من طاقتها براميل، وبطريق الرجعة من شمال لقبلة بيكون صوتها ناعم وحركتها أسرع ومرتفعة أكثر من لما تكون محملة. والبرميل صفيرو قوي كثير، أكثر من صفير اللغم البحري، ولما ينفجر دخنتو بتكون كبيرة وصوت انفجاره عالي كثير، أما اللغم الأرضي بالعادة دخنتو قليلة وصوتو ضعيف».

ويروي الشاب سعيد الأحمد، أحد سكان بلدة كفرنبودة بريف حماة الشمالي: «كنت أجلس على سطح المنزل مع أخي، وأمي تنظف المنزل، وفجأة بدأ الدخان والغبار يملآن المكان. لم نر شيئاً ولم نسمع شيئاً. نزلت إلى الأسفل لأرى ما حصل وإذا بأمي تلفظ آخر أنفاسها نتيجة سقوط صاروخ أمام المنزل. كانت طيارة حربية سورية لأنه سمعنا صوتها القوي وهي ترتفع، فالطيران السوري يضطر إلى الانخفاض حتى يقصف. ينخفض إلى مسافة تصل إلى 1 كيلومتر للتنفيذ على الهدف، وعلى الغالب دقته تكون قليلة، ثم يعود ليرتفع. أما المقاتلات الروسية فتقصف من علو مرتفع جداً، وخاصة الطيارة سو25 المقاتلة. لونها أبيض وحجمها أكبر من نظيرتها التابعة للنظام».

«طيران أشقر صديق على بعد 1 كيلومتر..، طيران أميركي على بعد 3 كيلومتر..، طيران عدو في الأجواء»؛ «استطعنا معرفة نوع الطائرات من خلال هذه العبارات»؛ يقول الراصد أبو أحمد ويتابع: «عبر ماسح الإشارات والقبضة اللاسلكية نسمع الحديث الذي يدور بين الطيار والقاعدة. ونستطيع تمييز نوع المقاتلة من خلال بعض الرموز التي اعتدنا على سماعها وبتنا نفهمها، أو من خلال مشاهدتها بالعين المجردة، بالإضافة إلى متابعة الطائرة من مكان الإقلاع إلى مكان التنفيذ عن طريق شبكة مراصدنا. الطيران الروسي تسميه مراصد النظام بالأشقر، أما التركي والإسرائيلي فيطلقون عليه طيران عدو».

تستمر حسناء، الطفلة ذات الشعر الذهبي والعيون الخضراء، في اللعب ما دام صوت الطائرة بعيداً ومسموعاً. وعندما تشعر أنها أصبحت قريبة تسرع راكضة إلى المغارة الذي أعدها جدها للتأقلم مع الظروف.

صلاح الدين الأوزبكي
قائد كتيبة «الإمام البخاري»

د. علي حافظ

قتل صلاح الدين الأوزبكي، أمير كتيبة «الإمام البخاري»، مساء الخميس 27 نيسان 2017، مع اثنين من مرافقيه وإعلامي الكتيبة، أثناء أدائهم صلاة المغرب في أحد مساجد منطقة شعيب بإدلب، بعد أن استهدفهم شخص برشقة رصاص من بندقية كلاشنكوف ولاذ بالفرار.

لم يمض وقت طويل حتى تمكنت القوة التنفيذية لحركة أحرار الشام من إلقاء القبض على القاتل في مدينة أريحا، وهو «جابر الأوزبكي» الذي انشق قبل أكثر من عام عن الكتيبة وانضم إلى جبهة النصرة، قبل أن يغادر إلى تركيا ويغيب مدة، ثم يعود ليعمل ضمن المكتب الطبي للكتيبة. وفي الوقت نفسه أعلنت داعش مسؤوليتها عن مقتل صلاح الدين، مؤكدة، عبر بيان نشرته، بأن التخطيط لقتله تم من قبل مقاتلي «ولاية خراسان» المبايعين لها، وغالبيتهم من مهاجري آسيا الوسطى. كما أكد البيان تلقي الضحية «العقوبة على خيانته وفقاً للشريعة الإسلامية...».

لكن، من هو أمير كتيبة «الإمام البخاري» الأوزبكية المقاتلة في سورية؟

هو أكمل جورابايف، البالغ من العمر 43 عاماً، والمعروف أيضاً بأسماء «حجي يوسف» و«الشيخ صلاح الدين» و«أبو إسماعيل صلاح الدين». ولد ونشأ في مدينة نامانجان بوادي فرغانة الأوزبكي. شهد عام 1992 تمرد الإسلاميين في مسقط رأسه وقمعه بشدة من السلطات المحلية، وتأثر جداً بما حصل. في العشرين من عمره توجه إلى المملكة العربية السعودية لتلقي العلوم الدينية في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. والتقى هناك بطاهر يولداشيف مؤسس وقائد «الحركة الإسلامية في أوزبكستان»، والتي كانت نشطة جداً في أفغانستان آنذاك، وهو أيضاً من مواليد نامانجان.

قام جورابايف بجهود دعائية نشطة لجذب مقاتلين جدد إلى هذه الحركة وتجنيدهم في صفوفها. ووفقاً لمركز «ميموريال» لحقوق الإنسان، الذي نشر على موقعه الإلكتروني قائمة بالمطلوبين للسلطات الأوزبكية «بسبب الجرائم التي قاموا بها ضد الدولة»، فإن جورابايف مطلوب لديها منذ عام 1998. وأعلنت المديرية العامة للمباحث الجنائية ومكافحة الإرهاب، التابعة لوزارة الداخلية في أوزبكستان، جورابايف متهماً حسب البند الأول من المادة 159 من القانون الجنائي: «الدعوة العلنية إلى التغيير غير الدستوري لنظام الدولة، والاستيلاء على السلطة بالسلاح، ومحاولة الإطاحة بالمسؤولين المنتخبين قانونياً أو المعينين، ومخالفة دستور وحدة جمهورية أوزبكستان».

عندما قتل يولداشيف عام 2009، في الجبال المحاذية للحدود الأفغانية، نتيجة ضربة أمريكية بطائرة دون طيار، بدأت النزاعات بين قادة الحركة الإسلامية الأوزبكية تظهر إلى العلن، وحينها اتُّهم جورابايف بالعمل لصالح وكالتي الاستخبارات الباكستانية والأميركية.

اختفى هذا الجهادي الأوزبكي مدة عن الأنظار، وما لبث أن انتقل إلى تركيا عام 2011 ليشكل كتيبته الخاصة للقتال في سورية، مطلقاً عليها اسم «الإمام البخاري». وكذلك أسس مدرسة خاصة للكتيبة في تركيا يدرّس فيها أطفال مقاتليه، إضافة إلى الشباب الأوزبك الذين وصلوا حديثاً إلى هناك. ويُعتقد أن الكتيبة تشكلت بناءً على أوامر مباشرة من قادة مقربين من القاعدة وطالبان، اللذين تعقدت علاقاتهما أيضاً -في ذلك الوقت- مع الحركة الإسلامية في أوزبكستان.

ارتفع عدد مقاتلي الكتيبة خلال مدة قصيرة، وشاركت في عمليات عسكرية نشطة بمحافظتي حلب وإدلب. ما لفت انتباه أبو بكر البغدادي الذي نقل عمليات المجموعة من سورية إلى العراق. وبعد الصراع الذي نشب بين داعش وجبهة النصرة اتهم صلاح الدين داعش بالصلات مع الاستخبارات الأميركية والإسرائيلية وقفل عائداً مع مقاتليه إلى سورية لينضموا إلى جبهة النصرة. وفي الوقت نفسه انضم بقية الأوزبك إلى داعش، ليصبحوا جزءاً من «ولاية خراسان».

أقام جورابايف علاقات جيدة مع زعيم المقاتلين الأوزبك القادمين من جمهورية قرغيزستان والمبايعين لجبهة النصرة، والذين شكلوا كتيبة عرفت بـ«عشاق الجنة»، ولاحقاً بـ«التوحيد والجهاد»، وكان يقودها سروجدين مختاروف الملقب «أبو صلاح»، والمشتبه في تنظيم جماعته لهجوم مترو الأنفاق في مدينة بطرسبرغ الروسية مطلع نيسان الماضي. وحاول الاثنان منع الكثير من أبناء جلدتهم في صفوف جبهة النصرة من الالتحاق بداعش، حتى يُزعم بأن جورابايف أعدم علناً أولئك الذين يريدون العبور إلى الأراضي الواقعة تحت سيطرة البغدادي. وقامت المجموعتان، جنباً إلى جنب مع القوى الأخرى لجبهة النصرة، في نيسان 2015، بالمشاركة في الهجوم على مدينة جسر الشغور التي كانت آخر معاقل قوات الأسد في محافظة إدلب، وذلك ضمن صفوف ما عرف حينها بجيش الفتح. وفي عام 2016 ذكر موقع كتيبة «الإمام البخاري» باللغة المحلية على الإنترنت أن المجموعتين بايعتا الأمير الجديد لحركة طالبان الملا هيبة الله آخونزادة. وينسق الأوزبك من كلا الطرفين خلال المعارك مع جماعة «جند الشام» بزعامة الشيشاني مارادماغوشفيلي (مسلم الشيشاني).

ووفقاً لإذاعة «الحرية» الناطقة بالأوزبكية تم تعيين أبو يوسف زعيماً مؤقتاً جديداً لكتيبة «الإمام البخاري» بعد مقتل أكمل جورابايف.

تل أبيض..
عرب وكرد وتركمان وسريان وأرمن وإدارة ذاتية

تقرير خاص

تل أبيض - خاص عين المدينة

قسمت سكة القطار المعروف بقطار الشرق السريع (برلين-البصرة) قرية تل أبيض، في الأعوام الأخيرة من العقد الأول للقرن العشرين، إلى جزئين، صار الجزء الشمالي في تركيا بعد رحيل العثمانيين وترسيم الحدود، وظل الجنوبي في سورية. وفي كليهما تسكن عائلات من عشائر المشهور (فرع من البقارة) وجيس (قيس) والبوعساف (فرع من الدليم) والبوخميس والنعيم.

محطة القطار التي أنشئت مع السكة جلبت سكاناً آخرين من عرب العشائر السابقة ومن السخانة التجار، ثم، وبعد 1915، من اللاجئين الأرمن ومن السريان الذين نزلوا جنوب المحطة بقليل وفي القرى القريبة، قبل أن يجمعهم الفرنسيون أثناء الانتداب في بقعة واحدة، ويمنحوا كل عائلة أرمنية أو سريانية قطعة أرض منها بعد تخطيطها، حتى صارت البقعة مركزاً للقرية التي سرعان ما تحولت إلى بلدة وهجرت البيوت القديمة بجانب السكة. ازدهرت تل أبيض بعد ذلك مع الحرف التي جلبها الأرمن، وأسهم السريان في استصلاح مساحات شاسعة من الأرض في القرى القريبة، وأدخلوا، في الأربعينات والخمسينات، الآلة إلى العمل الزراعي. آنذاك كان نصف سكان البلدة أو أكثر من المسيحيين، ومقابل جامع واحد بناه إبراهيم النقشبندي، الشيخ الوافد إلى البلدة في العام 1962، بنيت قبله ثلاث كنائس، أغلقت اثنتان منها مع هجرة الأرمن والسريان المتصاعدة في الستينات والسبعينات إلى حلب ولبنان، وظلت كنيسة الأرمن مفتوحة حتى وقت قريب.

يرجع كثير من الرجال الأكبر سناً من أهل تل أبيض الوجود الكردي في المدينة وجوارها إلى أربعينات القرن المنصرم. وقد بدأ، حسب ما يقولون، بشراء عائلات كردية قادمة من عين العرب/كوباني أرضاً شاسعة في قرية اليابسة 4- كم شرق تل أبيض- ثم اتسع في العقود اللاحقة، وخاصة في سبعينات وثمانينات القرن الماضي، كفلاحين وعمال على الآلات الزراعية وأصحاب مهن (مع مغادرة الأرمن المتصاعدة) وتجار صغار، حسب ما يقولون، وشاهدهم في ذلك، إلى جانب الروايات، قيود نفوس معظم كرد المدينة قبل الثورة، المنسوبة إلى محلات أخرى غير مدينة تل أبيض، منها اليابسة وسلسلة القرى الممتدة غرباً حتى عين العرب. يجادل الأكراد في الروايات ويعرضون وقائع موازية تتعلق بأسماء ملاك أرض كبار أقاموا في المدينة في سنوات أسبق من التاريخ المذكور.

إلى جانب العرقيات السابقة سكنت تل أبيض أيضاً عائلات تركمانية الأصل جاء معظمها من قرى التركمان جنوب شرق المدينة، وعرب آخرون يعرفون بالهنادة جاء أجدادهم إلى المنطقة ضمن حملة إبراهيم باشا المصري على سورية في العام 1831. وعلى أي حال كان المشهد السكاني التقريبي لمدينة تل أبيض قبيل الثورة متوزعاً على نسب تجعل العرب أغلبية بأكثر من 85% ثم الأكراد بـ10% والتركمان بـ4 % والأرمن بـ1%. وهو تقريب لن يرضي معظم الأطراف، لكنه قد يسهم في تصور التركيب المجتمعي العام. وسيتغير حتماً عند تناول تل أبيض كمنطقة واسعة (5 آلاف كم2 تقريباً) تضم مئات القرى الكبيرة والصغيرة ذات الأغلبية الكردية في الغرب، والعربية في الشرق والجنوب، إضافة إلى 5 قرى تركمانية في الجنوب الشرقي. لتصير «ثلثان للعرب وثلث للكرد والتركمان والأرمن»*.

لم تكن هذه النسب والأرقام موضوعاً إشكالياً في يوميات السكان على تعدد قومياتهم. وظهرت ملامح التوجس الأولى بعيد تحرير المدينة من النظام في أيلول 2012، تزامناً مع تنامي حضور حزب العمال الكردستاني PKK عبر امتداده السوري حزب الاتحاد الديمقراطي pyd في المجتمعات الكردية، وخاصة في مدينتي عين العرب/كوباني ورأس العين غرب وشرق تل أبيض. لعبت مظاهر الفوضى، متمثلة في سلوك بعض كتائب الجيش الحر، ومظاهر التطرف لدى جبهة النصرة النامية هي الأخرى في المنطقة آنذاك، دوراً في ولادة المخاوف لدى الأكراد، قبل أن يعمقها بالنسبة إليهم الصراع المندلع في رأس العين ابتداءً من كانون الأول 2012 والأشهر

* - تل أبيض في استراتيجيات الدول، محمد الحاج صالح. العربي الجديد

اللاحقة له، بين جبهة النصرة -ثم داعش- وبعض كتائب الجيش الحر من طرف وحزب الاتحاد الديمقراطي وتشكيلات عسكرية كردية أصغر من طرف آخر. رغم ذلك ظلت تل أبيض تنعم بسلام أهلي خلال هذه الأشهر، ولم تسجل فيها حوادث تذكر على خلفية عرقية، وشارك العرب والكرد والتركمان والأرمن في مجلس المدينة المحلي بتمثيل مرضٍ للجميع، إلى أن انتقل الصراع إلى المدينة في تموز 2013 حين حوصر أمير «الدولة الإسلامية في العراق والشام» (داعش)، خلف ذياب الحلوس، الملقب بـ «أبو مصعب» ومرافقوه، في كمين نصبه له pyd ليحاصر في مدرسة بقرية اليابسة، فترد داعش وشقيقتها النصرة بحملة اعتقال عشوائية طالت مئات الأكراد في المدينة كرهائن، إلى أن تدخلت الوساطات والمفاوضات ليطلق كل طرف أسراه. في الأيام التالية قادت داعش حملة تهجير واسعة لأكراد المدينة، وفجرت منازل متهمين بالانتماء إلى خصمها pyd، وامتد التهجير في وقت لاحق إلى 15 قرية كردية غربي تل أبيض.

كان الأكراد أول ضحايا داعش في المدينة، قبل أن تتسع القائمة لتشمل الجميع بعد سيطرة التنظيم في كانون الثاني 2014، ليهرب ناجياً بحياته معظم من شاركوا في أنشطة ثورية أو عامة ما لم يظهروا ولاءهم للتنظيم. خلال حكمها تل أبيض، وكما في أي مكان حكمته، أرهبت داعش الناس وحاولت توريط أوسع شريحة ممكنة منهم بجرائمها بطرق شتى كان منها، في تل أبيض، تعزيز المخاوف العرقية لدى العرب من الأكراد، لاجتذاب المزيد منهم إلى صفوفها، خاصة عقب هزيمتها في معارك عين العرب/كوباني ثم تآكل نطاق سيطرتها التدريجي شرقي تل أبيض وغربها. لم تفلح محاولة داعش تلك، إذ لم تظهر أي حالات تضامن شعبي معها مثلما لم تظهر أي حالات ترحيب بأعدائها، فاختارت الأغلبية الحياد عملياً حين تدفق الآلاف من سكان المدينة والقرى المجاورة منتصف حزيران 2015 عبر المعبر الحدودي إلى الأراضي التركية، عندما وصل مقاتلو pyd وحلفائه من التشكيلات العربية ضمن ما كان يعرف وقتها بغرفة عمليات «بركان الفرات»، كلواء ثوار الرقة ولواء ثوار التحرير. بطرد داعش من تل أبيض عاد الأكراد المهجرون، وفر منها أضعافهم من العرب والتركمان خوفاً من المعارك ومن انتقامات عشوائية ربما تطالهم، الخوف الذي عززته قائمة مطلوبين أصدرها pyd شملت 2500 من السكان. عاد الكثيرون بعد ذلك، عدا نسبة تزيد -بحسب تقديرات ناشطين محليين من العرب- على 30% من عرب المدينة وتركمانها. وليس كل هؤلاء خائفين من pyd أو من إدارته الذاتية، بل إن ثلثهم تقريباً ظلوا بعيدين عن ديارهم بدوافع أخرى، مثل توافر فرص عمل وارتباطهم بنمط حياة مستقر (نسبياً) في مدن لجوئهم التركية.

بذل pyd جهوداً كبيرة ومدروسة بما يحقق غاياته السياسية، لتأسيس نمط حكم خاص به مستنسخ من تجاربه في مناطق سيطرته الأخرى، مع مراعاة خصوصية تل أبيض ولو بقدر محدود. فأسس بداية ما عرف بمجلس الأعيان، الذي ضم أعضاءً من كل المكونات العرقية، قبل أن يتلاشى لحساب تشكلات جديدة. وقلص الحزب حدود المدينة وتوابعها المباشرة إلى نهر الجلاب (3 كم شرق) وأتبع ما يليه لرأس العين. وأتبع المدينة ذاتها لكانتون كوباني في خطوة أثارت استياءً واسعاً نظراً لما تحمله من زيادة عددية لصالح المكون الكردي، وتقليلاً من العرب بإبعاد القاطنين منهم شرق الجلاب إلى وحدة إدارية أخرى. تشرح السيدة زليخة عبدي، الرئيسة المشتركة للإدارة الذاتية في تل أبيض، لـ «عين المدينة»، هيكلية الإدارة المطبقة بأنها تتألف صعوداً من ثلاث مستويات؛ «الكومينات» أو مجالس القرى ثم مجالس الخطوط ثم مجلس المدينة. وهي مجالس تنفيذية تتبع للإدارة الذاتية وتتصل في الوقت ذاته بـ «دار الشعب»، التي هي ليست برلماناً كما يوحي الاسم، بل وحدة إجرائية تتعلق بتنظيم شؤون السكان ذات الطابع المركزي مثل البطاقات الشخصية والعقارات وغير ذلك، وتتبع هي الأخرى للإدارة. وتقول عبدي: «نحن نعمل ضمن المجتمع الطبيعي» الذي «يمنح الراحة لكل مواطن»، وتكمل في تفسير الأدبيات المستلهمة من تعاليم عبد الله أوجلان مؤسس حزب العمال الكردستاني في كتابه «الأمة الديمقراطية». تنفي عبدي، التي تبدو متفائلة بمستقبل إدارتها، التهم بالتمييز والتهجير وغيرها. وتؤكد أن «سورية وطن للجميع». وترفض التشكيك في طريقة تأسيس الإدارة في تل أبيض، من ناحيتي التعيين أو الانتقاء على أساس الولاء. وتستشهد بعمليات الانتخاب التي بدأت في القرى الآن ثم تصعد إلى مستوى الخطوط ثم المدينة مرحلة وراء أخرى. ترفض عبدي أيضاً الاتهامات بتواطؤ pyd والإدارة الذاتية مع النظام، وتقول إنها هي ذاتها مفصولة من وظيفتها في التعليم، وإن العلاقات الحالية مع النظام هي مجرد تحالفات تكتيكية لا أكثر، وتؤكد أن المواجهة معه قادمة في يوم ما، ولكنها تقرّ أن هذا «التحالف التكتيكي» أفقدهم تأييد شرائح واسعة من السوريين.

خاص عين المدينة

في الوسط الرافض للإدارة الذاتية من أهل المدينة تتشابه المآخذ العميقة عليها بأنها غير شرعية لأنها فرضت بالقوة، وأنها واجهة شكلية لأن أعضاءها مجرد أدوات بيد الحزب. ويحدد عبد اللطيف الكجل، وهو عضو مكتب تنفيذي سابق لمحافظة الرقة (قبل الثورة) ووجه اجتماعي معروف، ثلاث ملاحظات على الإدارة القائمة هي: تعيينها من قبل «سلطة استيطان واحتلال»، وأن أغلب الأعضاء العرب فيها مكرهون على المشاركة خوفاً من مصادرة الأملاك والملاحقة والاعتقال بتهم مفتراة، وهو يتحداهم أن ينفذوا أي مقترح يخالف رغبة الحزب وسياساته، وأخيراً أن أعضاء الإدارة ورؤساء مكاتبها يفتقرون إلى الكفاءة: «فكيف لمحكوم جنائي سابق أن يكون رئيساً مشتركاً للإدارة؟! ولسائق جرار زراعي أي يكون رئيساً لدار الشعب؟! ولتاجر أسمدة أن يكون رئيساً للجنة الشؤون الدينية؟!»، حسب وصف الكجل الذي يشكو من مظالم كثيرة لحقت به فقط لأن أولاده كانوا في الجيش الحر، إذ صادر pyd منزله وأرضه الزراعية التي تمتد على مساحة 800 دونم، كما يقول. ويسأل عن مصير المفقودين في معتقلات الإدارة الذاتية، ومنهم بشار خليل الحسين، قريبه الشاب الذي اعتقل بوشاية كاذبة منذ تموز 2015 ولم يعرف مصيره حتى الآن، ويرجح أنه مات تحت التعذيب. من جانبها تنفي عبدي هذه الاتهامات وتقول إنهم أصدروا عفواً عاماً شمل حتى بعض من ارتبط بداعش، وإن أي متهم يعرض على محكمة الصلح أولاً ثم على محكمة العدالة. ووعدت معدّي هذا الملف أنها ستتابع شخصياً قضية بشار. بينما يقلل مناهضو الإدارة من أهمية وعودها الكثيرة دون أن يشككوا بشخص الرئيسة المشتركة لأنها، حسب ما يقولون، «دون سلطة فعلية»، إذ تعود السلطة لـ «كوادر قنديل العاملين وراء الستار».

يشير عبد اللطيف الكجل إلى أزمة ستظل مؤثرة في المدينة لوقت طويل، وهي المشكلات التي خلقها pyd على أساس قومي. ويتأسف على الماضي الأخوي بين الجميع. ويتذكر المكانة الهامة والأدوار الخيرة لشخصيات كردية، تمكن بعضها من حل مشكلات بين عشائر عربية عجز عن حلها شيوخ عشائر كبرى. ويأمل ألا تتضرر الأخوة الراسخة بين العرب والكرد

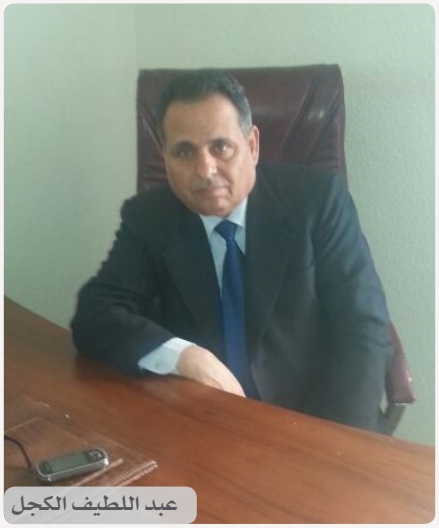
عبد اللطيف الكجل

والتركمان رغم ممارسات سلطة الأمر الواقع.

وفي جلسة كبيرة ضمت عشرة أشخاص، معظمهم خريجو جامعات، من أهل تل أبيض اللاجئين في تركيا، قالوا جميعاً إنهم لا يستطيعون العودة خوفاً من الاعتقال، وإنهم ملاحقون اليوم من pyd مثلما كانوا ملاحقين من داعش، ولم يقبل أي منهم ذكر اسمه خوفاً على أفراد عائلاتهم المتبقين في تل أبيض. يشبّه حقوقي من الحاضرين أساليب الاتهام وفبركة الأدلة لدى pyd بأساليب داعش والنظام. وفي عهد الاثنين، ثم في عهد pyd اليوم، كانت الخدمات متوافرة والأمن العام مستتباً لكن دون حريات أو حقوق راسخة للفرد، فالأنظمة الشمولية جميعها تفرض هذا النوع من النظام كما يقول. أما المعلم السابق فيأسف على الحال التي آل إليها التعليم وعلى فرض اللغة الكردية في مناهج الطلاب الأكراد لمجرد تنفيذ سياسات الحزب ودون تفكير في مستقبل هؤلاء الجامعي. ويقول مسؤول تربوي سابق إن pyd يعبث هو الآخر، مثلما عبثت داعش، بالتعليم، وينظر إليه من المنظور ذاته كوسيلة لخلق أجيال مغسولة الدماغ، وإن مناهج الإدارة الذاتية «القاصرة والمرتجلة والمسيسة» تكمل ما بدأته داعش بالقضاء على جيل بأكمله عبر منهاج «كان تحت الطباعة في الموصل، بمنهاج للـpyd ما يزال تحت الطباعة أيضاً».

تشرح عبدي عن مناهج الإدارة (غير المكتملة حتى الآن) «التي حلّت فيها الديمقراطية محل القومية»، والتي سيدرسها الطلاب العرب والأكراد كل بلغته احتراماً لثقافة كل شعب. ولا تبدي قلقاً من مسألة الاعتراف بشهادات إدارتها في جامعات «روج آفا» المستقبلية أو في «ألمانيا وإنكلترا وفرنسا» وغيرها من الدول التي اعترفت -كما تقول- بهذه الشهادة بعد افتتاح ممثليات للإدارة هناك. ولا تعدّ فرز الطلاب على أساس عرقهم في منهاجين مختلفين عامل عزلة وتقسيم، لأنهما سيكونان في المدرسة ذاتها وإن في غرف صفية مختلفة.

في شوارع تل أبيض وبيوتها، بعيداً عن القائمين على مشروع الإدارة ومؤيديها وجبهة رفضها الواسعة في أوساط اللاجئين، تبدو الحياة اليومية عادية، رغم الأعلام والصور والشعارات التي تعبر عن سلطة pyd على المدينة وأهلها. يقول شاب عربي متعلم، طلب إغفال اسمه، إن الإدارة الذاتية نجحت في تأمين الحد الأدنى من النظام في قطاع الخدمات العامة وتوفير المستلزمات الرئيسية للسكان وضبط الأسعار. لكن المشكلة الرئيسية بالنسبة إليه هي غياب الحريات وتغول جهاز مكافحة الإرهاب H.A.T الذي يعمل في الخفاء ويعتقل من

خاص عين المدينة

يشاء لأدنى شبهة أو وشاية دون أن يتمكن أحد من السؤال عنه، وكذلك فرض التجنيد الإجباري على الشباب ضمن ما يعرف بواجب الدفاع الذاتي، وعودة أتباع النظام ومخبريه. يؤكد الشاب أن الخوف من الملاحقة والتهمة السهلة بالعلاقة مع داعش دفعا كثيراً من الشباب العرب إلى الالتحاق بالفصائل العربية التابعة لـ«قوات سورية الديمقراطية» (قسد) رغم معرفتهم بتبعيتها لنظام الأسد، مثل لواء صقور الرقة ولواء أسود الفرات، أكبر هذه الفصائل. ويقول إنه تفاءل أول الأمر بمشاركة فصائل من الجيش الحر في تحرير تل أبيض من داعش، قبل أن يكتشف المشروع الحقيقي لـpyd وسياساته التعسفية في التهجير والتغيير الديمغرافي وفرض ثقافة غريبة عن المجتمع وفق رؤى شخص واحد. ويقول الشاب إنه يذهب إلى المنطقة التي يسيطر عليها لواء ثوار الرقة بحماية أمريكية من pyd جنوب عين عيسى «لاستنشاق هواء الحرية ورؤية علم الثورة يرفرف مرة أخرى» ليستعيد بعض الثقة بالمستقبل المجهول الذي ينتظر المدينة.

استطلاع رأي:

أجرت «عين المدينة» استطلاع رأي شمل عينة من 200 من أهل تل أبيض، نصفهم ما زال يقطنها ونصفهم لاجئ في تركيا. أجري الاستطلاع في الجزء السوري بشكل سري تقريباً، بناء على رغبة الأشخاص المستطلعة آراؤهم. وتشكلت هذه العينة من أشخاص قال معظمهم إنهم يريدون العيش بسلام فقط. بينما تنوعت العينة الثانية في تركيا بين نشطاء وأصحاب مواقف سياسية وأشخاص لا يبالون كثيراً بالشأن العام. وُجّه للعينة الأولى سؤالان؛ الأول عن رأيهم في نجاح الإدارة الذاتية ومجالسها في النواحي الخدمية والاقتصادية، والثاني عن مشاركتهم في انتخابات افتراضية غير إجبارية تحت سلطة الإدارة الذاتية. بينما وُجّهت للعينة الثانية ثلاثة أسئلة عن سبب بقائهم في تركيا؛ أهو اقتصادي أم خوفاً من السلطة القائمة هناك، وعن رأيهم في حقيقة تبعية الإدارة الذاتية لحزب الاتحاد الديمقراطي pyd، وعن رأيهم في حقيقة علاقتها بالنظام.

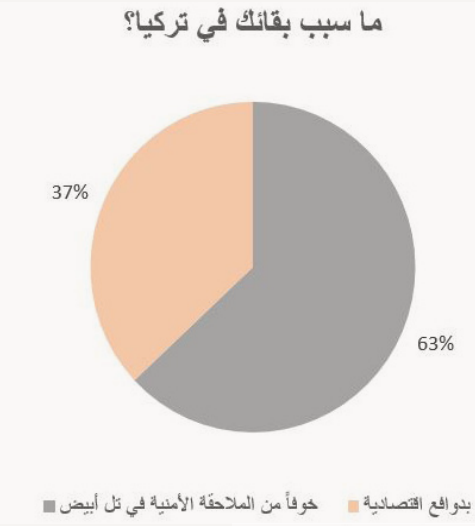

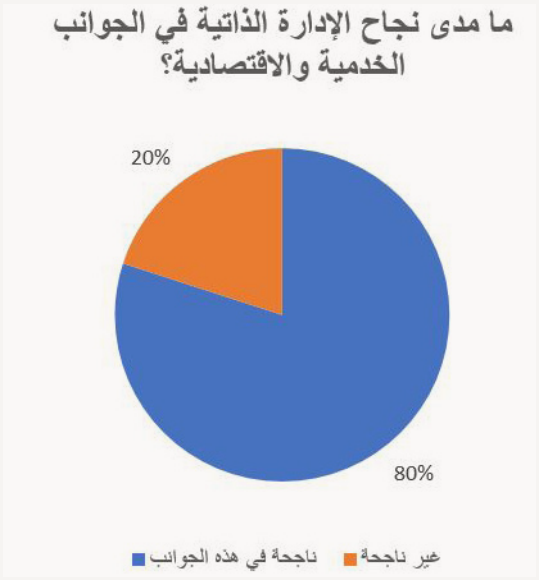

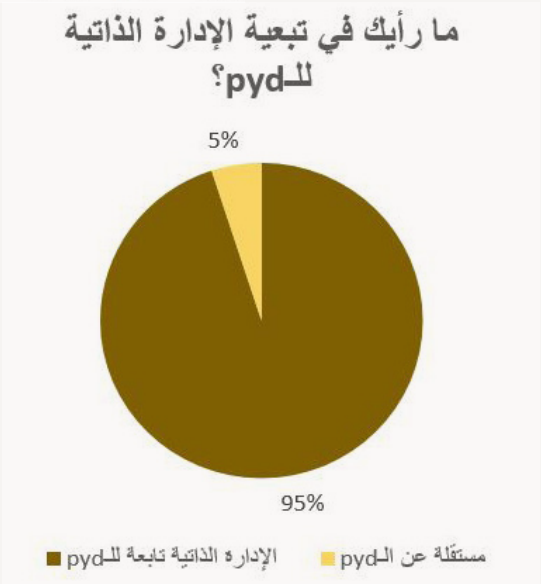

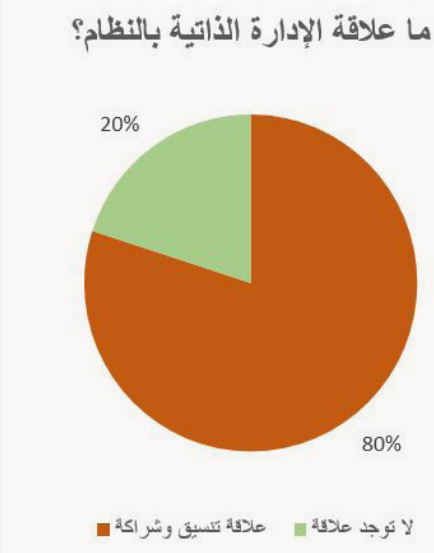

لماذا عاد وليد المعلم إلى الظهور؟

يغيب وزير خارجية النظام الكيماوي لفترات طويلة، فنظن به الظنون، ثم يفاجئنا بظهور جديد يجعلنا نتفكر في معاني تعاقب الغياب والظهور.

بكر صدقي

من المرجح أن غياب المعلم لا يتعلق بمواصفاته الخارجية، من بدانة مبالغ بها وخمول في النطق وسماجة في الروح، مما تشكل معاً تخريشاً مؤذياً للحواس والذائقة البشريتين، بقدر ما يتعلق بانتفاء الحاجة إلى دوره كممثل لمن يمثله أمام الخلق في عالم الدول. فقد كفّى سيرغي لافروف ووفّى في تنكب هذه الوظيفة الشاقة والمقيتة، إضافة إلى وظيفته الأساس كوزير خارجية للرئيس الروسي فلاديمير بوتين. أو قل إن الوظيفتين وظيفة واحدة، في الواقع، ما دام نظام الوصاية الروسية سارياً على «سورية الأسد»، ولا عمل للأستاذ وليد غير تسجيل دوامه في مبنى الخارجية. فلا دول تتعاطى مع هذه «السورية» المنكوبة -في الظاهر الدبلوماسي على الأقل- ليحتاج وليد لاستقبال نظراء له، ولا هو بصدد السفر إليهم. وحين يتعلق الأمر بالظهير الإيراني فثمة في النظام بيادق أهم منه لشغل وظيفة ضابط الارتباط. أما في جنيف وأستانة فقد أثبت بشار الجعفري علو كعبه في تمثيل سيده، بما قد يرشحه لخلافة المعلم إذا بلغ الأمر بهذا الأخير، بنتيجة النهم والخمول، حالاً تتطلب تفصيل سيارة ومقاعد خاصة تستوعب طبقات شحمه المتراكمة باطراد.

لا قِبَلَ لي بمشاهدة برميل النظام الدبلوماسي، فاكتفيت بقراءة شذرات مما قاله في ظهوره الأخير. بدا لي أن الرجل مكلف بمهمة محددة، هي وضع حد للقلق الناشئ لدى البيئة الحاضنة للنظام، بمناسبة الخطة الروسية الجديدة بشأن المناطق «منخفضة التصعيد» (أو لعلها «متصاعدة الانخفاض»؟) على ما في هذه العبارة من ابتكار للمستحيل يذكرنا بعناوين روايات من عصر الحرب الباردة كـ«الصعود إلى الهاوية» أو «الهبوط إلى القمة» والله وحده أعلم بدلالات الكلام. فالحاضنة تفقد الأمل كلما انخفض التصعيد، فيبلغ بها القنوط ذروة الهاوية.

غير أن ما قاله المعلم بشأن تدخل أردني محتمل من الجنوب يدفعنا إلى النظر وجهةً أخرى بحثاً عن معاني ظهوره المفاجئ: ترى هل هناك مخاوف جدية لدى النظام من احتمال بيع روسيا رأسه للأميركيين؟ فقد اتضح، بعد خان شيخون والشعيرات، أن ترامب لا يعرف المزاح أبداً، أو في أفضل الأحوال، لديه طريقة غريبة ومؤذية في المزاح. مقلق إعلان وزير خارجيته عن «نهاية حكم السلالة الأسدية». فإذا كانت دول الغرب قد واظبت، طوال عهد أوباما، على الحديث عن مصير شخص، وانتهت إلى التسليم له بطول البقاء، فهذه الإدارة الجديدة قد أدخلت مصطلح «السلالة الأسدية» إلى التداول، وهذا مدعاة لقلق حقيقي. والمقلق أكثر هذه الميوعة الروسية التي سارعت إلى إطلاق خطة المناطق الأربع تجاوباً مع مشروع المناطق الآمنة لترامب، وإن كانت بصيغة بوتينية. وها هو سيرغي يطير من أستانة إلى واشنطن لتقديم فروض مودة عزيزة المنال، ناسياً عمله الإضافي كوزير لخارجية النظام الكيماوي.

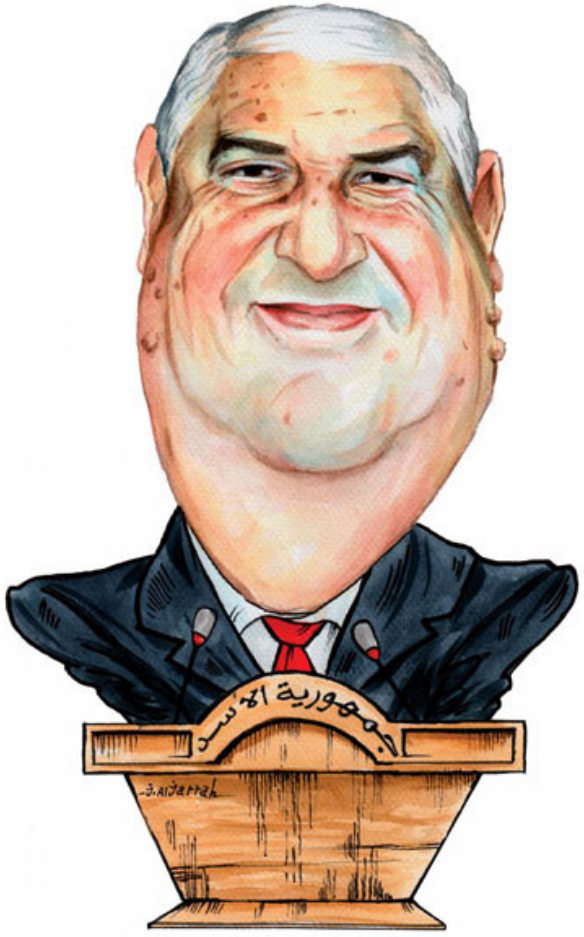

عند هذه النقطة برزت الحاجة إلى وليد المعلم وكيلاً عن لافروف «الأصيل» لتوضيح ما غمض من اتفاق أستانة الثلاثي. فقد ترجم لنا المعلم معانيه بلغة النظام، بحيث لا يختلف كثيراً عن اتفاقات الاستسلام الموضعية المسماة بـ«المصالحات»: ألقِ سلاحك واستسلم، نكف عن قصف مواقعك. وما سيقوله بشار الكيماوي، بعد أيام قليلة، بخصوص عملية جنيف، سيعزز هذه الترجمة، فيتظاهر النظام بأنه قوي وليس لديه ما يعطيه. فهل هذا التنمر الورقي موجه فقط للحاضنة القلقة أم لروسيا أيضاً التي لا يمكن الوثوق بها ليومين متتاليين؟

يبقى الجواب في واشنطن. صحيح أن ضربة الشعيرات لا تتحمل تفسيرات كثيرة، ولكن من يدري؟ لعلها كانت مجرد مزحة خشنة من البدين الأميركي. وعلى أي حال لا خيار غير مواصلة قصف السوريين بالبراميل، بانتظار القرار النهائي من واشنطن، وفي غضون ذلك لا بأس بقصفهم، من حين لآخر، بالأستاذ وليد، على سبيل التنويع.

السيادة الوطنية.. على طريقة النظام السوري

أحمد عيشة

في سورية، البلاد التي دأب الأسد طويلاً، ونجح إلى حد كبير في تحويلها إلى مزرعة مملوكة للعائلة «المقدسة» ولمن والاها تبعاً لعلاقات القرابة والارتباط والخدمات التي يؤديها المرء لاستمرار حكم وسيطرة العائلة، صارت لمفهوم السيادة أو «الثيادة»، كما يتلفظ بها «الولد الأكبر» الحاكم، دلالات غير ما يعرفه الجميع، من المواطن العادي حتى الخبراء الدستوريين والمشرعين والفقهاء.

المتتبع لخريطة توزع القوى في سورية، وخاصة منذ نهاية العام الثاني من الثورة، وفي بدايات 2013، يلحظ أن النظام، بجيشه ومخابراته وميليشياته، كان الطرف الأضعف والفئة التي تسيطر على أقل مساحة من الأرض، وكانت عوامل انهياره تزداد، فقرر أن يستفيد من «حقه» -الذي ما زالت الأمم المتحدة والدول الغربية تمنحه إياه، بالرغم من ادعاء الكثير من قادتها فقدانه الشرعية وضرورة رحيله- في ممارسة السيادة على البلاد، بطلب تدخل القوى الخارجية الصديقة له، وأولها إيران، التي لها المصلحة الأكبر في استمراره كحاكم ضعيف يتسول دعمها ويبقى ألعوبة بين يديها، فسارعت، لمصلحتها أولاً، إلى دعمه بالمال والسلاح والقوى البشرية. وعبر خطابها الطائفي وتحريض الشيعة في كل أنحاء العالم، حشدت وجندت عشرات الميليشيات تحت إشراف الحرس الثوري مباشرة، إلى درجة صار فيها قاسم سليماني مفوضاً سامياً على سورية، يوجه ضباط النظام في بعض الحالات.

ورغم ذلك لم تستطع كل قوات الميليشيات الطائفية إحراز تقدم نوعي لصالحها ولصالح النظام، وعندها قرر الأخير أن يتوسع في ممارسة «حقه السيادي» فطلب من روسيا التدخل المباشر. وكان هذا الطلب، بالنسبة إلى روسيا التي تدعمه عسكرياً وتغطيه سياسياً، فرصة لا تعوض لدولة تراجع دورها ونفوذها، وأهينت في عقر دارها من الغرب، لاسترداد جزء من هيبتها بالبلطجة لصالح النظام. وبالطبع، لم يكن هذا التدخل بعيداً عن التوافق مع الشريك الإسرائيلي الذي يدّعي النظام، وحليفته ميليشيا نصر الله، «مقاومته وممانعته».

وأسهم التدخل الروسي في سحق حركة الشعب السوري بوجه النظام، من خلال الهمجية المفرطة في تدمير المدن والبشر، ناهيك عن تلاعباته واتصالاته السياسية مع المعارضة الناعمة المفصلة على المقاس المخابراتي.

الولايات المتحدة، وكدولة عظمى تنتشر مصالحها وحلفاؤها في مختلف أنحاء العالم، كانت حاضرة عبر حليفها الأساسي، أو ما تعتبره «قواتها البرية» المتمثلة في وحدات حماية الشعب الكردية التابعة لفصيل صالح مسلم، الذي دفع ببراغماتيته إلى أقصى درجات الانتهازية، حتى قامت أميركا بإنشاء قواعد عسكرية في الشمال الشرقي من البلاد.

أما تركيا، ولأنها تحملت العبء الأكبر من مسؤولية اللاجئين، وكانت من الداعمين الأوائل لثورة السوريين، والتي تعتبر وجود قوات الحماية الشعبية الكردية، إحدى أدوات حزب العمال الكردستاني، خطراً لما يمكن أن يشكله من إمكانية إقامة كيان يكون ملاذاً وداعماً للحزب الأم في تركيا؛ فسارعت في النهاية، ومنذ آب 2016، إلى التدخل المباشر لتدعم فصائل الجيش الحر في الحفاظ على الحدود بعيداً عن سيطرة الميليشيا الكردية أولاً، ولطرد داعش ثانياً.

لن نستطرد أكثر في حجم التدخلات في سورية، والتي هي، بشكل من الأشكال، تعبير عن صراع على مصالح الأطراف المتدخلة، فالقائمة تطول.

ولكن لا بد من الحديث عن الطرف الذي يزعم صاحب السيادة أنه يقاومه ويمانعه طيلة وجوده في السلطة، ولكن على طريقته، والجولان أكبر مثال على هذه المقاومة، وهو إسرائيل، والتي يبدو أنها اللاعب الأساسي في الحفاظ على وضع في سورية يكون فيه الحاكم ألعوبة، والمفضل هو صاحب «الثيادة». لهذا الطرف حسابات مستقبلية، وأهمها ألا يترك أي إمكانية لقوة ما في البلد، وثانياً أنه، ضمن علاقة الصراع مع حزب الله، قام لمرّات عديدة باختراق الأجواء وضرب الكثير من المواقع العسكرية. لكن يبدو أن هذه الضربات لا تخرق السيادة، لأنها تتم بالتنسيق مع الشريك الروسي!

بالطبع، يجمع النظام حقوق الرد على إسرائيل، وسيختار المكان والزمان المناسبين، ويبدو واضحاً أن المكان هو الأراضي السورية التي خرجت عن سيطرته وأن الضحايا هم سكانها.

لا يبدو مفهوم السيادة واضحاً، حتى بمنظور النظام، إلا إذا قاربناه من مفهوم العاهرة التي لها الحق في أن تستقبل من تشاء وترفض من تشاء، إنه جسدها!

أعياد كثيرة للشهداء

مصطفى خطيب

ليس بالإمكان استيراد الحرية. هي ذلك المفهوم الذي يولد في لحظة ولا تستطيع إيقافه، هذا ما علق في حنجرتي رافضاً أن يتزحزح. لا أعرف كيف تسيطر جملة على حواسك الخمس، لم أحلم بها ليلاً ولا أذكر أني خضت حديثاً سياسياً منذ زمن، فلم يعد هناك وقت للكلام.

حاولت أن أفكر أكثر، فالطريق الطويل الذي أمشيه للوصول إلى عملي يحتاج إلى أكثر من فكرة وإلى أكثر من عشرة أصابع أعدّها كلما بدأت. لم يخطر في بالي أن اليوم في مفكرتنا القديمة هو السادس من أيار أو عيد الشهداء.

«قد علقتكم يد الجاني ملطخة

فقدست بكم الأعواد والمسدا»

وحده الفيس بوك من ظل يحدثنا عن تاريخنا. قرأت بيت الشعر هذا على صفحة مغترب آخر. ربما أردت التعليق على ما كتبه ثم خطر في بالي أن أمين معلوف قال يوماً إن المغترب كان منفياً وقبلها نازحاً وقبلها ربما أجبرته الحياة على اتخاذ قرار بالانسلاخ عن بلاده. ربما وحده الآن يهتز لبيت الشعر هذا. توقفت عن كتابة الرد وأردت إكمال طريقي وقلت: «كم عيداً للشهداء سنحتاج عند امتلاك الحرية؟».

بدأت الفكرة تتداخل مع تفاصيل كثيرة؛ هل ستعطل المدارس في أعياد الشهداء الكثيرة وعندها لن يبقى يوم للدراسة، أم أنها ستكون يوم عمل وطني؟

استبعدت الفكرة كمن علقت في عينه حشرة. عركت عيني كي أصحو، فلا نريد مصطلحات بعثية جديدة عند امتلاكنا حريتنا، سنكتفي بدقيقة صمت. «ما الذي يجول في فكرك» عند كل دقيقة صمت؟ علينا أن نجد طريقة جديدة للتعبير عن أعياد الشهداء، ربما سنكتفي بالترحم على أرواحهم في الإذاعة المدرسية، أو نكتب جملة على حائط الفيس بوك، ثم بعد أن نرهقهم أدباً على صفحاتنا ننسى وتبرد قبورهم من جديد. وحدهن الأمهات سيبكين فقد أبنائهن ويتحسسن صور وجوههم الجميلة ويربتن على شعر أحفادهن بالكثير من الحقد والألم. ربما لا تعني الشهادة لأم أكثر من الغياب.

من هم الشهداء الذين كنا نحتفل بعيدهم في السادس من أيار؟ حاولت أن أعصر ذاكرتي فلم تسعفني. لعل قاتلهم كان العثماني جمال باشا السفاح، أو ربما الجنرال غورو عند احتلال فرنسا بلادنا. جهلي بالأسماء التي اختفت في كل احتفالات أعياد الشهداء التي مرت خلال أعوامي الأربعين، والسنوات السبع التي عشتها في زمن الثورة، دفعني لا شعورياً إلى المقارنة وربما التساؤل، هل كان التاريخ كاذباً في نقل أوراقه إلينا.

كم شامت كان هناك حين رأى تلك الجثث معلقة على أعواد المشانق؟ كم خائن وعميل وتاجر حروب كان يأخذ حصته من دمائها؟ لمست وجهي خوفاً من فكرة أن يكون أحد أجدادي واحداً من هؤلاء.

ألسنا الآن من نضع صور بوتين «المخلّص» ونرفع أيدينا ملوحين للطائرة التي تنطلق من أرضنا لتقتل ما تبقى من قلوبنا؟ أليس هناك من يتغنى بالطائرات الروسية وبالحرس الثوري الإيراني وغيرهم من المرتزقة، وينصبون لنا المشانق بأيديهم ويشمتون بأطفالنا ويتباهون بالجثث التي تخلفها الطائرات؟ كم يد لوحت للفرنسيين وهم يقصفون قبة البرلمان السوري في أربعينيات القرن الماضي ويدمرون دمشق الياسمين معدّدين النعم التي جلبها المستعمرون لبلادنا؟ وعلى سيرة البرلمان، هل وضع البرلمانيون الجدد صوراً للمندوب السامي على الحائط الرسمي لقبّتهم وفي بيوتهم وفي غرف نومهم أم اكتفوا بعدِّ الشهداء والوقوف دقيقة صمت أخرى على أرواحهم وراحوا يبحثون بعدها عن خمارات البلد وملاهيها ليخففوا عن رؤوسهم ضجيج الجثث، مؤكدين على أهمية المقاومة والممانعة؟

وإلا كيف نكون -بكل هذا الفرح بالقتل والانقسام على قضية عادلة- أبناء جيل كان يشعر بالألم لشهداء لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين ويهتزون لذكرهم؟

عندما نسترد حريتنا علينا أن نعيد النظر في كتابة التاريخ فالجغرافيا أقوى من أقلامنا، ثم لم يعد بيدنا أن نوقف هذه الحدود، أما في التاريخ فلن يُكذَب علينا مرة أخرى. نحن الشهود على العصر. سنكتب ما يخطر في بالنا، وسنملأ سماء العالم الأزرق، ونغرد على تويتر، ونفعل ما لم يفعله أجدادنا. ضحكت لما راودني وكنت قد وصلت قريباً من عملي. ولكن أخبار الطيران القذرة على صفحتي أعادتني من حلمي فركضت لأحتمي خلف جدار على الطريق. لحظات من الصمت مرت، انتبهت بعدها أني في جغرافيا أخرى، أكملت طريقي. ربما هذا عيد آخر للشهداء سأضيفه إلى لائحة ما يخطر في بالي يوم أن ننال حريتنا.

لماذا تقبل الشعوب بالعبودية؟!

أبو محمد الإدلبي

لماذا تسلّم الشعوب أمرها لحكامها؟ ولماذا يستبد هؤلاء بشعوبهم؟ عمل الكثير من المفكرين والفلاسفة والمثقفين السياسيين على الإجابة عن هذين السؤالين، في محاولة لتفكيك آليات التحكم والاستبداد التي تمارسها الأنظمة على شعوبها. ولكن الأحرى أن يتداخل السؤالان في سؤال واحد: هل يمكن للسلطة أن تستبد دون وجود شعب خانع؟

يقول «جان جاك روسو» في كتابه «العقد الاجتماعي»: «سيظل هناك فرق كبير بين إخضاع جماعة وإدارة مجتمع. وإذا ما استُعبد أفراد من الناس متفرقين الواحد بعد الآخر، بالغاً عددهم ما بلغ، من رجل واحد، رأيتُ هناك سيداً وعبيداً ولم أرَ شعباً ورئيساً: هذا يصح أن نسميه حشداً من الناس لا تجمعاً متحداً، إذ ليست هناك مصلحة عامة ولا هيئة سياسية. وهذا الرجل يظل فرداً من أفراد الناس ولو استعبد نصف العالم. ومصلحته، بانفصالها عن مصلحة الآخرين، ليست إلا مصلحة خاصة».

ولإخفاء هذه الحقيقة تستخدم السلطة المستبدة جيشاً من الإعلاميين والمثقفين ورجال الدين والفنانين الذين يعملون على بث الأيديولوجية الخاصة بهذه الأنظمة، بحيث لا يستطيع المواطن أن يفكر ويعمل إلا ضمن هذا الحقل الخاضع للسيطرة التامة من قبل هذه السلطة المطلقة. وعمل هؤلاء المثقفين هو تبرير وجود وممارسات وسياسات هذه السلطات المتخلفة، وقد ربطوا مصيرهم ووجودهم بمصيرها ووجودها، وبدورهم يحصلون على امتيازات مادية ومعنوية مقابل هذه الوظيفة التبريرية. وإذا نظرنا مرة أخرى إلى كلام «روسو» نرى أن الاستبداد يرتبط مباشرة بتحقيق «مصلحة خاصة» تشكّل، في العمق، جوهر الأنظمة المستبدة. التي صارت لها سمة أخرى هي من سمات التطور العلمي والاقتصادي الهائل وهي التبعية للغرب الرأسمالي الذي تخضع له بالكامل: سياسياً واقتصادياً وعسكرياً، وبدوره يمنحها الغرب حمايته بما يضمن بقاءها واستمراريتها من أي هزات داخلية أو خارجية.

طيلة وجودها تعمل الأنظمة المستبدة على منع أي فكرة أو تجمع أو حزب سياسي يحمل مجرد أفكار معارضة، وتتجسس باستمرار على شعوبها، ومن أجل ذلك تنشئ أجهزة أمنية مهمتها مطاردة وتغييب هذه الجماعات والقضاء عليها، ولأجل ذلك أيضاً تبني السجون جنباً إلى جنب مع المنشآت، حتى وصل الأمر بأحد الشعراء أن قال في كثرة المعتقلات: «إني لأعجب من مدينة تبني سجونها على ضفة نهر وهي بحاجة للماء!!».

ولكن إذا كان الاستبداد يفترض الدفاع العاري عن مصالحه، وكانت السلطة تجنح نحو الهمجية والتخلف؛ لماذا تقبل الشعوب بأداء دور «العبيد»؟

غالباً ما يتميز خضوع الشعوب للسلطة المستبدة بسمة رئيسية هي ضعف ثقافة الشعوب، كما أن استبداد السلطة له سمة موحّدة هي تخلفها وهمجيتها. ولكن بالإضافة إلى ضعف الوعي الثقافي أو غيابه، يلبي الخضوع احتياجات مطلوبة لدى هذه الشعوب. فالعبودية تؤمّن «أماناً» و«راحة نفسية» و«تبريراً» لواقع يبقى خارج «التساؤل» و«العمل» لتغييره.

إن التفكير والتضحية والنضال وتحمل المسؤولية والنهوض بالأمة كلماتٌ تليق بالعقل المتنور القادر على خلق واقع جديد ينسجم مع مصلحة الأكثرية، واقع تسود فيه مفاهيم الحرية وسيادة القانون وحقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية محل كلمات سوداء متخلفة وتبريرية وأنانية مثل «الرئيس السوبرمان» والدفاع عن الوطن ضد العالم.. إلخ، بينما تعمل الأنظمة على التفريط بالأوطان والعباد والثروات والمستقبل.

ألم يقل الكواكبي: إن الفساد ملازم للاستبداد!

ولكن شرط التحرر من العبودية هو «وعي الذات» كما يقول هيغل. ولكي ننهض ونتقدم ونقضي على الاستبداد ينبغي أن نكون أحراراً من «داخلنا»، بمعنى يجب أن نتخلص من عبوديتنا وفسادنا كي نستطيع الخلاص من هذه الأنظمة المتخلفة والمستبدة.

الحياة في الموصل بعد تنظيم الدولة الإسلامية (٢ من ٢)

«مصير ومستقبل هذا البلد مرتبط بنا نحن المعلمين»

كاترين كونتس
دير شبيغل/ 14 نيسان
ترجمة مأمون حلبي

بجوار غرفة المدير توجد صور أطفال مرسومة على الجدار. أحدهم منحنٍ على كتاب يقرأ فيه، وطفلان آخران يمسكان بيدي بعضهما تحت كلمة «مرحبا».

عندما استلم تنظيم الدولة مدرسة ابن مروان طلى وجوه الأطفال بدهان داكن. كان تصوير الوجوه يعدّ حراماً. ذهب عناصر من التنظيم أيضاً إلى اللحّام أمام المدرسة، وكان يقوم بالدعاية لملحمته بملصق فيه صورة بقرة. طلوا دهاناً فوق الملصق وقالوا للحّام إن الله فقط هو من يخلق الكائنات الحية. الآن انتهت هذه المرحلة، ويقول المدير شاكر: «مصير ومستقبل هذا البلد مرتبط بنا نحن المعلمين». لكنه لم يتصور بَعدُ طريقة معالجة هذا المشروع. ما يراه يقلقه: «عندما يلعب الأولاد أثناء الفرصة يمثلون دور الشرطة والتنظيم. أحدهم يطلق النار على الآخرين». يفضل المدير أن ينسى الماضي؛ لا خطط لديه لمعالجة الأحداث، ولا فهم للرضوض النفسية، إنما يمتلك قلباً وعيوناً مفتوحة وشيئاً من الحكمة. إنه يقول: «الأطفال كالعجين، وبالإمكان تشكيلهم. إنهم يتعلمون بسرعة، ولكنهم ينسون بسرعة أيضاً».

في أحد صفوف المدرسة يتكدس قرابة 50 طالباً، والجو في الداخل خانق. محمد أصيل، الذي درس المسرح في ما مضى في الجامعة في بغداد، يُعلّم اللغة العربية في هذا الصباح. يعادل مرتب أصيل الشهري 160 يورو. «لأن الحكومة لا تدفع لي مرتبي ما أزال أعمل مساء في الكشك الذي أملكه». يرى أصيل أن فترة حكم تنظيم الدولة هي الأقسى في حياته. أصيل، المولود في الموصل، تعرض للتعذيب مرتين. مرة من قبل الشرطة السرية العراقية عندما خلطوا بينه وبين قاتل، وكان هذا بعد سقوط صدام. ومرة أخرى من قبل تنظيم الدولة لأنه التقط صور سيلفي بينما كان يسبح نصف عار في النهر. يقول أصيل: «لم نكن نكلم الأطفال عن التنظيم أبداً، والسبب الرئيسي هو أن أولياء معظمهم كانوا من أتباعه. والآن ما زال علينا الحذر، لأن التنظيم قد هُزم عسكرياً فقط. إننا لا نتكلم عن الماضي، لكنني أقرأ لهم قصصاً يحتاجونها في حياتهم».

في غرفة المعلمين عُلِّق على الجدار هرم مكون من 5 صفوف. في الصفّ الأدنى مكتوبٌ «الاحتياجات الأساسية»، ثم «الأمن»، ثم «الحياة الاجتماعية»، ثم «الاحتياجات الشخصية»، وفي الأعلى «تحقق الذات». أصيل متفائل، وهو يقتبس الحكمة نفسها التي يقتبسها جميع معلمي المدرسة: «الأطفال كالعجين...».

تدريب الأطفال على القتل

يخرج قيصر الكردي من غرفة الصف. فتى مبتهج يبدو أصغر من سنوات عمره الثلاث عشرة. في هذا الصباح كان هو الشخص الذي تكلم بحماس شديد عن مرحلة حكم التنظيم. يجلس بخجل في غرفة المعلمين الذين سمحوا بتردد أن تتم مقابلته. قيصر يحب فريق ريال مدريد ويريد أن يصبح طبيباً. أيريد أن يتكلم عما حدث هنا؟

يغلق الفتى الستائر كي لا يستطيع الأطفال الآخرون أن يسترقوا النظر. «كان أفراد التنظيم يأتون كل يوم كي يعلمونا القتال. لم يكونوا يشرحون لنا شيئاً. كل ما كان علينا فعله هو اتباع الأوامر». رويداً رويداً يصبح صوته أكثر حماساً، وسرعان ما يقفز ويشير إلى المكان الذي كانوا يختبئون فيه خلف إطارات السيارات أو خلف جدران من أكياس الرمل أثناء تدريباتهم القتالية. يتحرك في الغرفة الفارغة مثل راقص، يلكم وجهاً غير مرئي على أرضية الغرفة، يصارع الهواء، يلكم، ويُري كيف علقوا حوله حزاماً فيه قنابل بلاستيكية. من الصعب قراءة تعابير وجه قيصر- مزيج من الافتتان والرهبة والخوف الخالص.

بعد المدرسة استضافنا والد قيصر في بيته. يقول محمد الكردي، وهو مسلمٌ ورع لا يصافح النساء: «في البداية تركت قيصر يذهب إلى المدرسة لأني أريده أن يتعلم القراءة. بعد مدة لاحظنا أنهم كانوا يحاولون غسل دماغه. بعد بضعة شهور بدأ بالذهاب إلى المسجد، وهناك حاولوا إقناعه بالانضمام إليهم، لكنني فعلت مثلما كانوا يفعلون؛ غسلت دماغه في الاتجاه الآخر. علمته الإسلام الصحيح، والمسامحة». محمد يقول أيضاً الجمل التي يؤمن بها الجميع هنا، جمل تريح النفس ويراد منها استحضار الأمل: «الأطفال كالعجين...».

عندما يعود الأطفال إلى المدرسة بعد الظهر يطلب منهم المدير الرجوع إلى بيوتهم. في الموصل الغربية مات قرابة 200 شخص في قصف لقوات التحالف، وأمرت الحكومة بحداد رسمي. يأخذ المدير المفاتيح ويغلق أبواب المدرسة لثلاثة أيام.

أبو سعيد الأشرم في دير الزور

محافظ الجورة والقصور والممالك المحيطة بها

اليوم، يعدّ تنقل التاجر محمد ناصر محمد سعيد الأشرم في المناطق التي يسيطر عليها النظام بدير الزور إحدى الامتيازات التي لا يملكها كثيرون هناك، بما في ذلك عناصر الأمن والجيش والميليشيات، الذين لا يتمتعون بالنفوذ نفسه عند دخول منطقة لا تخضع للجهة التي ينتمون إليها. لكن مكانة أبو سعيد لم تأت من فراغ، فهي مكافأة كفاح طويل عززه منذ بداية الثورة.

لم يكن من المتوقع لذلك المتعهد الصغير ومعلم الرياضة أن يصل إلى ما وصل إليه لولا جرأته ونشاطه الفائقان، والظروف المواتية للطامحين إلى الثروة والوجاهة، وبالطبع الفساد. فقبل ذلك لم يكن متاحاً لأبو سعيد سوى شغل منصب مختار خلفاً لأبيه في حيّ الجورة، أو تعهد مشاريع صغيرة لإحدى المديريات في المدينة بدعم من أحد المسؤولين الصغار. وفي حالة أبو سعيد كانت (إحدى المديريات) هي الصحة و(أحد المسؤولين) قريبه حسان مغير، العضو المختص بالتجارة والصناعة في مجلس المحافظة آنذاك، حين حالف الحظ المغامر أبو سعيد، فنجا بأعجوبة من قضية فساد تتعلق بأحد مشاريعه، والتي أدخلت صديقه أمين مستودع الصحة إلى السجن.

في زمن المظاهرات دفعت الجرأة المقاول الصغير أبو سعيد إلى تسلم مشروع إزالة دوار المدلجي، رمز الاعتصامات، وإعادة إعماره، في وقت شل الخوف والترقب مواقف مسؤولين كثر. ومنذ انتشار الجيش الحر في المدينة لم يترك أبو سعيد فرصة إلا واستغلها، من جلب بريد الدوائر، إلى نقل موظفين من المدينة وإليها، إلى تركيب إنترنت فضائي لمبنى المحافظة، ليجد ضالته أخيراً في ضابط المخابرات ياسين الضاحي الذي تسلم فرع الأمن العسكري خلفاً لجامع جامع.

منذ ذلك الحين أصبحت مشاريع أبو سعيد كبيرة وحساسة، وقد افتتحها برفع أسوار وتحصين وتشييد زنازين داخل بناء الأمن العسكري، ثم تعديلات مشابهة لبناء الأمن السياسي، ليصبح تالياً رجل الخدمات وتأمين المستلزمات لكافة الأفرع، إلى جانب تنفيذ العديد من المشاريع لصالح منظمات عالمية. ومنذ تعيين محمد عينية، ليّن الجانب، محافظاً لدير الزور، لم يعد لذلك المنصب أي معنى أمام حضور أبو سعيد، الذي صار قسم من أهالي مدينته يطلق عليه وصف المحافظ، ولكن الذي يعيش معهم بتواضع، ويوزع على فقرائهم مبالغ في المناسبات، ويعبأ أمواله بالشوالات، رغم أنه ما زال يلبس بوطه الرين ويستجدي حصصاً من الهلال الأحمر!

ليس من السهل الوقوف على مشاريع أبو سعيد، لكن أشهرها صناعة الألبان والأجبان وحفر الآبار واحتكار المواد الغذائية المسقطة من الجو وتأمين الوقود من القامشلي، ومؤخراً جلي بلاط ساحات المحافظة الخارجية! أي، باختصار، الثراء بأي طريقة، ودون النظر إلى المحاذير التي يخشاها سواه. فمع الزمن تحولت المناطق التي يسيطر عليها النظام في دير الزور إلى مناطق نفوذ، يتقاسمها كبار ضباط الأمن والجيش وقادة الميليشيات التي يقود أحدها جمعة المختار أخو أبو سعيد، وتتكون من شيعة قرية حطلة، لكن نفوذ أبو سعيد المالي الخدمي يتجاوز كل هذه التقسيمات.

مجلّة عين المدينة نصف شهرية سياسيّة متنوعة مُستقلة

عضو الشبكة السورية للإعلام المطبوع

SNP

ayn-almadina.com
info@ayn-almadina.com

@AynAlmadina

/3aynAlmadina

- لا تعبر المقالات المنشورة بالضرورة عن رأي المجلة.
- ترحب المجلة بمساهماتكم غير المنشورة سابقاً.

دير الزور

الحديقة المركزية - 2012

شارع الهجانة - 2013

عدسة أحمد - خاص عين المدينة